
هنري لورنس
شرقيات
كليبر في مصر
المواجهة الدرامية مع بونابرت
ترجمة : بشير السباعي

كليبر في مصر

المواجهة الدرامية مع بونابرت

العنوان الأصلي لهذا البحث

Kléber en Egypte

تأليف:

Henry Laurens

إصدار:

I F A O

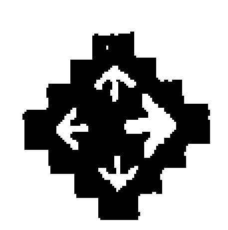
Le Caire, 1988

كليبر في مصر

هنري لورنس

ترجمة بشير السباعي

الطبعة الأولى ١٩٩٩



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي من هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١ باب اللوق القاهرة

ت ٣٩٠٠٢٩١٣ س ت: ٢٦٩١٩٨

تصميم الغلاف: ذات حسين

لوحة الغلاف:

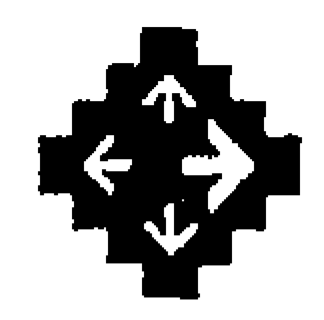
«كليبر، قائداً عاماً» للفنان آنسيو

هنري لورنس

كليبر في مصر

المواجهة الدرامية مع بونابرت

ترجمة: بشير السباعي



دار شرقيات للنشر والتوزيع

مختارات*

باب النصر. بعد بابي سان ديني وسان مارتان في باريس، لا أعرف له في فرنسا مثيلاً في جماله وعظمته. إن العمارة الرومانية تلتقي دون مشقة بالعمارة العربية. وهو، بصرف النظر عن ذلك، يتميز بتنفيذ رائع الجمال.

كليبر، **يوميات مصر**

بمناسبة عيد الأول من فانديميير، أمر بونابرت بأن يتم في أحد ميادين القاهرة نصب مسلة شاهقة الارتفاع، ليس من الجرانيت بل من سماك مغطى بكتان عليه رسوم، مثلما جرت العادة على ذلك في أيامنا. وبعد الاحتفال بالعيد، أحدث الجنود فتحة في القاعدة ودخلوا إليها. وقد وجدوا المكان مناسباً للهو مع القحبات المصريات، وسرعان ماأصبح مرتعاً للرذيلة وللفجور. وفي النهاية، اختفى غطاء هذا النصب تماماً. وهذا الأثر الذي كان في البداية جد رائع ويناطح السماء، وقد كف عن أن يكون غير وكر شائن ومثير للسخرية، إنما يشتهي ويتحسس سقوطه الوشيك. فإمّا أن أكون مخطئاً بشكل فادح، أو أن قصة هذا الأثر، الذي أعلنَ نبأُ تشييده لأوروبا بالطبل وبالزمر، سوف تكون قصة بونابرت نفسه.

كليبر، **يوميات مصر**

---

* المختارات من اختيار المترجم.

إن الشعب منزعج، وهو لا يرى فينا، وهو شيء يمكن تصوره، غير أعداء لما يملك. وقلبه مفتوح أبداً على الأمل في حدوث تغير مؤات.

كليبر، **رسالة إلى حكومة الإدارة،**
٢٦ سبتمبر ١٧٩٩

ـ لماذا قاتلت حتى الآن؟

- لأجل مجد جيوشنا ولأجل الحرية. ومجد جيوشنا في الذروة. لكن الحرية تبتعد بقدر ما أتقدم...، ماذا أقول؟ إنها لم تعد لها قائمة. بل إنها لم توجد قط. وأنا لا أملك منها غير الأمل فيها؛ وهذا الأمل يبهت. إلاّ أنه يبقى لي مع ذلك سبب قوى لمواصلة عملي، إن كان صحيحاً أنني أقوم به بشيء من التوفيق؛ وهو أن أسهم، قدر الإمكان، في أن لا يتدخل الأجانب في شئوننا الداخلية. فأنا أعتقد أن الشيء الذي يمكن أن يكون أكثر إهانة لأمة من الأمم هو أن تتلقى من الخارج قوانين وحكومة. هذا هو الحدث الوحيد الذي إن حدث سيجعلني أتنكر إلى الأبد لوطني ولأعمالي.

كليبر، **يوميات مصر**

كلمة من المترجم

بين أمور أخرى، شكلت الحملة الفرنسية على مصر ترجمة للانحطاط الثيرميدوري للثورة الفرنسية والذي شكل مدخلاً إلى البونابرتية التي دشنها إنقلاب ١٨ برومير.

وبهذا المعنى، كانت الحملة مفصلة بين ثورة آفلة واستبداد عسكري. وطبيعي أن هذا الواقع هو الذي يسمح بتكشف تباين الرؤى بين مختلف المشاركين والمتورطين في الحملة، حيث يصبح الموقف من مصائرها جزء من النزاع حول مغزى الثورة نفسها ومصائرها التاريخية.

وهذا الكتاب لا يتحدث عن الحملة أساسا إلاّ من زاوية رصد هذا النزاع، مركزاً على محاوره المستترة في تطور العلاقات بين كليبر وبونابرت.

وقد ظهرت هذه الدراسة التاريخية في الأصل علي شكل تقديم لأوراق كليبر في مصر والتي صدرت عن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة في عام ١٩٨٨. وقد أتيحت أمام هنري لورنس فرصة ثانية للعودة إلى هذا الموضوع في ندوة عقدت بالمركز الثقافي الفرنسي بالمنيرة في ٢٧ مارس ١٩٩٦، شارك فيها كاتب هذه السطور الذي شدد في كلمته على بيان أن عمل لورنس الأشهر، **الحملة الفرنسية في مصر**، إنما يدرج الحملة المذكورة "ضمن سياق نزوع أساسي أنجبته الثورة البورجوازية الآفلة، هو النزوع إلى تأكيد التجانس وإلى محو تنافر الألوان، أي إلى إنهاء

حق الاختلاف، وهو حق من حقوق الإنسان، من أجل تأكيد حق الاستعمار، بما يدل على الانحطاط الذي أصاب الثورة".

وقد أوضح لورنس هذه الفكرة مجدداً في حواره مع كاترين فارحي والذي يظهر هنا في خاتمة هذه الدراسة، كما عاد مترجم هذه الدراسة إلى طرحها في مقال له حول "الحملة الفرنسية: المغزى والمصير" أكد فيه على مهمة إعادة بناء العالم بأسره على أسس جديدة تكفل احترام الآخرية والتحرر الإنساني بديلاً عن الاغتراب، وبديهي أن مثل هذه الأسس لا يمكن أن تكون أسس المجتمع البورجوازي المعاصر، بل أسس مجتمع آخر يشكل نفياً جدلياً للأخير.

وواضح أن الهدف من هذه الترجمة هو تهيئة الأذهان لتأمل إشكالية النزاع حول مصائر الثورة الفرنسية ونحن على أبواب الذكرى المئوية الثانية لانقلاب ١٨ برومير الذي دشن المغامرة النابوليونية، بعد أن كانت الحملة على مصر قد أومأت إلى هذه المغامرة.

القاهرة، ١٤ أبريل ١٩٩٩

بشير السباعي

تمهيد

أترون هذه السواحل الرملية الموحشة،
حيث تنشر بحيرة طبرية مياهها المالحة؟
أترون جبل الكرمل الذي يتدفق من واديه الأخير
نهر بلا مجد إلى سهول ايسدرلون؟
أترون الناصرة وقانة، الموسومتين ببصمات المَسْيا،
وقمة جبل حرمون التي تظللها أشجار الأرز؟
تلك الأماكن المقدسة التي يرى المسيحي أنه مايزال بوسعه أن يرصد منها الهالة السماوية على قمة جبل طابور؟
على هذه الجبال، على سفوح التلال المشجرة،
على هذه التخوم التي بلا أزهار والتي يخترقها نهر الأردن.
مائة ألف مسلم، لا أحد منهم يعرف الآخر،
يجيئون من أطراف آسيا إلى جبل طابور،
بهجمتهم الدائرية يطوقون منذ الفجر
هذا المربع الذي يرفع علماً ثلاثي الألوان،
كليبر هناك... كليبر، على هذه البقعة المعزولة،
مثل صخرة بحرية ينوشها المحيط،
إذ يكسر الموجات السوداء لهذه الأقوام التي لا اسم لها
يبعد هزيمته بقوة الانتصارات.
واقفاً بين جنوده، يطل عليهم كلهم؛
هامته المرتفعة والأبية تتحدى جميع الضربات؛

لا شيء يمكنه هز رباطة جأشه،
مكتوب عليه إما أن يموت أو ينقذ فرنسا،
يقبل العبء بحكم شعوره السامي بالواجب،
كذلك، لابد لك من أن تزهو مرة أخرى
كذلك، في صحراء خصبة بالانتصارات،
عندما سوف يحارب مائة ألف عثماني جنودك الذين لن يزيدوا عن عشرة آلاف
وتجد نفسك مجبراً على اجتراح معجزة أخرى
سوف يبهر مجدك مدينة الشمس!..

Barthélemy et Méry, *Napoleon en Egypte,* chant septieme,
Quatrième édition, Paris, 1828,pp. 161-163.

"لنذكر جنرال طليعة ماينس، الخالد، سيئ الحظ كليبر. كان آنذاك رجلاً في الثانية والثلاثين من عمره [الواقع أنه كان في الثانية والأربعين. -هـ. ل.]، وكان يتميز بنضج يستحق الإعجاب وبشخصية عسكرية تلهم المرء الشجاعة عندما يراه. كان مثقفاً واسع المعارف وقد خاض جميع حروب ألمانيا. وفي ماينس، عهدوا إليه بقيادة المواقع الخارجية الأمامية، أي بخوض معركة تواصلت على مدار مائة وعشرين يوماً. وكانت المكافأة في انتظاره على الحدود. لقد اعتقلوه. هكذا كان مصيره. كان ضحية في الفانديه، وكان ضحية على ضفاف نهر الراين، حيث تركوه دون عون أو مدد. وكان ضحية في مصر. وهو ما يزال ضحية في التاريخ".

Michelet, *Histoire de la Revolution Française,* Livre XIII, chapitre V.

يطرح القرن التاسع عشر الفرنسي على نفسه دون توقف مسألة الثورة والإمبراطورية، وما ذلك إلاّ لأن مصيره إنما يجد تمثيله في هذا التساؤل نفسه. والحال أن الأسطورتين، الثورية والإمبراطورية، متعارضتان وتتمم إحداهما الأخرى سواء بسواء في هذا السياق. وغالباً ما يعبر الجدل عن نفسه في مقابلة بين شخصيات بأكثر بكثير مما في صوغ مفاهيم (متعارضة)، مادام أنه بدءً من لحظة معينة حلت فجأة عبادة رجل، هو نابوليون، محل دخول الإيديولوجيات الحديثة مسرح التاريخ [١].

وهذا التحول الحاسم لتاريخ الثورة، نهاية الإدارة وبداية القنصلية، إنما يتميز أيضاً بلحظة الحملة الفرنسية على مصر والتي تعلن لأوروبا ولفرنسا أن مستقبلهما سوف يصاغ أيضا خارج رأس آسيا الصغير.

وهذه المشكلة المزدوجة، مصير الثورة والمشروع الاستعماري، هي العنصر الأساسي للمواجهة الدرامية بين هذين النقيضين: كليبر وبونابرت.

وكما يبين النصان اللذان استشهدنا بهما على رأس هذا التمهيد، تنسب الأسطورة إلى كليبر دور الشهيد، كما لو أن حياته ما كان يمكن أن تكون لها نهاية أكثر منطقية من اغتياله في القاهرة في عين يوم انتصار القنصل الأول (بونابرت – المترجم) في مارينجو. إلا أن من المحتمل أنه قد مات في ذلك اليوم شيء يتجاوز

الرجل، مفهوم معين عن الجيش وعن الثـــورة.

لقد احتفظت أرشيفات جهاز تاريخ الجيش الـــبري بالشـــهادات الرئيسية لهذا التاريخ: مراسلات كليـــبر الرسميـــة في مصـــر وكذلـــك أوراقه الشخصية (لم ينجح نابوليون في إعدامها كمـــا كـــان يعـــتزم). وهي تسمح بالدخول إلى حميمية هذا الرجل غير العـــادي الـــذي كانـــه كليبر، وبفهم طبيعة انـــزعاجه وتردده تجاه صعـــود بونـــابرت، وهـــو موقف يشاطر فيه مجمل الكـــادر الثـــوري، وبمعرفـــة الواقـــع اليومـــي لبدايات الحملة، خاصـــة في الإســـكندرية، وباســـتعادة صـــور عنـــف ووحشية الحملة على الشام في عام ١٧٩٩، والـــتي يعـــبر القـــدر فيـــها عن رفضه الأول لبونابرت كمـــا تشـــكل استشـــرافاً لمصـــائر حملـــة ١٨١٢ (على روسيا – المـــترجم).

حاشية التمهيد

١- "يبدو التاريخ هنا وكأنه قد سقط في هاوية. فهو يسقط من الموضوعات الكبرى العامة، الجماعية، ومن الأفكار، ومن الجماهير الشعبية، لينزل إلى الفرد، إلى السيرة الشخصية الخالصة.

"ففي ظل روبسبيير، وفي ظل الجبل، والجيروند، والمؤتمر، وقبل ذلك، في ظل الجمعية التأسيسية، وقبل ذلك أخيراً في ظل الفلاسفة، وفي القرن الثامن عشر بوجه عام، كانت الأولوية الأولى **للفكرة** على كل ماعداها، وإذا كان **الفرد** يصبح موضوعاً للنقاش، فلم يكن ذلك إلاّ بمناسبة مناقشة الفكرة. وغالباً ماكان **الفرد** يتميز بمكانة كبيرة، ولكن بما يتناسب مع الفكرة التي يبدو أنه يمثلها.(...)

"وهنا، فإن بلورة الفكر والتجريد الجميلة هذه، إذ تبهت بشكل ثابت، إنما تنحدر، كما لو كان في هوة عميقة من التجسد المادي. فيبدو وكأن الذهن البشري قد نسي كل مفهوم، كل نظرية، كل لغة. إن كلمة وحيدة قد حلت محل كل شيء في الأدمغة البائسة، كلمة واحدة جرى تحريفها بل وليست فرنسية أصلاً: **بونابرتي** (كلمة كورسيكية حرفها نابوليون إلى بونابرت كجزء من سعيه إلى نسيان أصله الكورسيكي غير الفرنسي. -المترجم)".

" إلاّ أنه اذا كان ممايستثير الفضول والاستغراب أن نشهد سقوط الذكاء الذي انحط فيه العالم، فليس أقل مدعاة للفضول وللاستغراب أن نرى كيف قام مدعي صنع المعجزات العظيم، المشعوذ الخارق الذي قام بهذه المعجزات التي لا تستند إلاّ إلى الإيهام وإلى استخدام عمى الناس، بالتحضير لحرفته الغريبة. على العلم والأفكار والأمة السلام! على الوطن السلام!... لقد جرت تنحية كل هذه الأمور. ومايهمني هو الانكباب على الحديث عن... رجل" (ميشليه: **تاريخ القرن التاسع عشر**، المجلد الأول، **الإدارة، أصل بونابرت**، باريس، ١٨٧٥، ص ص ٣٣١-٣٣٣).

تعرض عمل ميشليه الأخير هذا للإهمال البالغ، والأرجح أن السبب في

ذلك هو عداوته العنيفة لبونابرت. على أن هـــذا العمـــل يقـــدم عنـــاصر أساســية لفهم بدايات القرن التاسع عشر وخاصة فيما يتعلـــق بالرهانـــات العالميـــة للحملـــة الفرنسية على مصـــر.

الفصل الأول

كليبر قبل الحملة على مصر[1]

حياة كليبر قبل الحملة هي عبارة عن تقلبات بين العالم المدني والفعل العسكري. وهو رجل مسكون بالإحساس العميق بجدارته وبكرامته، الأمر الذي يقوده إلى نبذ كل مؤامرات الطموح. وهذا التمسك بكرامته يقوده إلى ما يمكن اعتباره مسالك فشل حقيقية.

ولد في ٩ مارس ١٧٥٣ في ستراسبورج في أسرة تنتمي إلى البورجوازية الصغيرة. ووالده، الذي يموت بعد مولده بسنوات قليلة، هو شرطي برتبة رقيب. وسرعان ماتتزوج أمه من جديد من بنّاء معماري عليه أن يتولى مهمة تربية ابن زوجته هذا المشاكس.

وشبابه شباب عاصف موار بالحركة. وزوج أمه يتمنى له اتخاذ عين مهنته ويدرجه في عداد صبيان النحاتين للحجر في ستراسبورج. وفي التاسعة عشرة من عمره، يجري إرساله إلى باريس تلميذاً لشالجران، معماري سان فيليب دو رول. وهكذا يتعلم قواعد العمارة الكلاسيكية الجديدة. على أنه سوف يتسنى له في القاهرة تقدير قيمة الفن الإسلامي.

ويحيا التلميذ الشاب حياة ريتيف دو لا بريتون، لكنه لا يملك إمكاناتها المادية ولذا يضطر إلى الاستدانة، مما يؤدي إلى استدعاء أسرته له إلى ستراسبورج حيث سرعان ما يستولي عليه الضجر. ولما كانت الحياة العسكرية والمغامرة مصدر غواية له منذ وقت بعيد، فإنه ينخرط في قوى شباب المقاتلين التي تتبع أمير بافاريا في ميونخ، ثم يدخل في عام ١٧٧٧ في خدمة الجنرال الكونت كونيتز،

ابن وزير ماري – تيريز، كمهندس معماري في البداية ثم كضابط في فوجه المرابط في المنخفضات النمساوية. وفيما بعد، في الحروب (الفرنسية ضد.. – المترجم) ألمانيا، سوف يَهْزِمُ حاميه السابق.

والحال أن كوزموبوليتية عصر التنوير، العصر الذي يسبق صعود النزعات القومية الذي حفزته الثورة والإمبراطورية، إنما تسمح بفهم المسيرة العملية الألمانية لرجل سوف يصبح في أواخر القرن التاسع عشر رمز ارتباط الألزاس بفرنسا. والانتقال من العمارة إلى الحياة العسكرية في خدمة شخص واحد ليس فيه ما يدعو إلى الدهشة في نهاية عصر التنوير تلك. ثم إنه، بالرغم من عنف شخصيته وخشونة معجمه وسلوكه، لا يكف عن قراءة أعمال حول أكثر الموضوعات تنوعاً. وبحكم هذا كله، يندرج كليبر الشاب اندراجاً تاماً في ثقافة وفي طرائق عصره.

لكن أوروبا في حال سلم وكليبر يبدي طابعاً عنيفاً وميالاً إلى النزاع بالرغم من افتقاره إلى حمايات عائلية. ولهذا فإنه لا يتخطى رتبة الملازم الأول. وإذ يشعر باليأس من المهنة العسكرية، فإنه يأخذ إجازة في عام ١٧٨٣. وفي الثلاثين من عمره، بالرغم من امتلاكه ثقافة عسكرية ومدنية تتممها قراءات واسعة، فإنه يجد نفسه بلا أية مكانة في المجتمع.

ويحصل له زوج أمه في عام ١٧٨٤ على وظيفة مفتش على المباني العامة في بلفور. ولما كان قد أصبح متعقلاً، فإنه ينكب على العمل ويؤدي واجبه بإتقان مع ممارسته في الوقت نفسه لمهنته كمعماري، ملتزم دائماً بالأسلوب الكلاسيكي الجديد. وندين له، بين أشياء أخرى، بمشروع برج للأمير دو مونبليار، يستلهم عشق مصر الرائج آنذاك، فنجد فراعنة وأبا هول ونقوشاً هيروغليفية، يبدو أنها كلها ذات مصدر إلهام ماسوني.

والحال أن صديقه وأول كاتب سيرة له، وهو لوبير ديريكور،

قد قدم لنا وصفاً لمظهر كليبر في فترة ما قبل الثورة:

"كان كليبر واحدًا من أكثر رجال عصره وسامة، وكان طوله يصل إلى نحو ستة أقدام، ويتميز قده بالتناسب التام مع هذا الطول؛ وكانت نظرته رقيقة أو مريعة بحسب ما يحرك كوامنه. وبالرغم من أن عينيه لم تكونا واسعتين إلاّ أهما كانتا معبرتين بشكل فريد؛ وكانت أسنانه بيضاء إلى أبعد حد وكان يهتم بالحفاظ عليها اهتماماً عظيماً؛ وكان جرس صوته مريحاً تماماً عندما يكون هادئاً، بينما كان يتحول إلى جرس راعد عندما يجتاحه الغضب. ولما كان أنيقاً دائماً، ولكن بأكثر الأشكال بساطة، فقد كان مرغوباً بلهفة، ولو أنه كان يبدو حريصاً على الانزواء: وقد نَسَبَ إلى قامته، إلى مظهره، غالبية الأحداث السارة أو المحزنة في حياته"[٢].

وسوف يقول بونابرت فيما بعد: "ليس هناك من هو أجمل من كليبر يوم المعركة[٣]".

وكان من الممكن أن يواصل كليبر هذه الحياة جد الهزيلة على وجه الإجمال لو لم تؤد الثورة إلى قلب نظام الأشياء. ولما كان نصيراً للتنوير، فإنه يقبل الثورة بحماس. وبوصفه أحد رجال عام ١٧٨٩ لا عام ١٧٩٣، فإنه يظل معتدلاً. وهو لا يلتحق إلا متأخراً بنادي اليعاقبة المحلي ولا يبدو مداوماً على حضور الجلسات. إلا أننا ندين له بالتنظيم العملي والفني لعدة أعياد مدنية.

وهذه الثورة، التي يناصرها، تؤدي إلى خراب زبائن فن العمارة، الهيئات الكنسية وكبار النبلاء المحليين. ولهذا فهو يضطر إلى الاستدانة من جديد. وتجنيد المتطوعين بدء من الحرس الوطني، والذي أمرت به الجمعية التأسيسية في عام ١٧٩١، هو بالنسبة له طريق الخلاص. والحال أن المهنة العسكرية تنفتح عليه هذه المرة بشكل أفضل خاصة وأن ضباط الجيش الجديد، بالرغم من انتخاب الجنود لهم، يجب أن تكون لديهم بالفعل خبرة عسكرية. وسرعان

ما يصبح واحداً من ضباط كتيبته الرئيسيين.

وهو يدخل التاريخ بفضل تقدم الجيوش الفرنسية بعد فالمي. ويتعرض جيشه للحصار في ماينس في أواخر عام ١٧٩٢. وهو يصبح أحد أبطال الحصار. ويتلقى مهمة الدفاع عن الأعمال الخارجية. وهو أحد المنظمين الرئيسيين للدفاع الرائع عن هذا الموقع في وجه قوات أكبر عدداً بدرجة طفيفة.

وتستسلم ماينس في ٢٣ يوليو ١٧٩٣ مع الاحتفاظ بأمارات الشرف الحربي: فبوسع الفرنسيين الجلاء عن المدينة مع أسلحتهم مع التعهد بالتوقف عن محاربة قوات الائتلاف لمدة عام. وفي فرنسا، كان الإرهاب قد بدأ وكان الثوار مرتابين في الجيش. ويجري اعتقال ضباط جيش ماينس بدلاً من تهنئتهم. والحال أن كليبر، بالرغم من أنه قد أفرج عنه بسرعة هو ورفاقه، سوف يظل، وقد شعر بالمرارة، عميق العداوة للبعاقبة.

ويجري ارسال "جماعة ماينس" إلى الفانديه، فالسلطات الثورية ترى أن الحرب الأهلية ليست مدرجة في بنود الاستسلام، وهي حرب رهيبة، فهي صدام تعصبين(٤). والفظائع متواصلة ويرتكبها الطرفان الموجودان في الساحة.

وتحتدم في داخل صفوف الجيوش الجمهورية أزمة قيادة دائمة بين الجنود الحقيقيين والسان كيلوت المرسلين من باريس لقيادتهم(٥). ويجد كليبر نفسه عدة مرات عرضة للاعتقال ومن ثم عرضة للإعدام.

على أنه سوف يثبت مواهبه العسكرية الكبيرة؛ وسوف يكون مسئولاً هو والشاب مارسو، صديقه وتقريباً ابنه من الناحية الأدبية، عن هزيمة الفانديين. وبالرغم من أوامر الإبادة التي أصدرها المؤتمر، فإنه يحاول أن يكون رحيماً قدر الإمكان، لكن ممثلي المؤتمر الموفدين يقظون (خاصة كارييه الرهيب).

وتسيء الجمهورية مكافأة كليبر وذلك بسبب صراحته في مواجهة الأوامر الرعناء التي يصدرها جنرالات هواة تجر "جماعة ماينس" إلى مذبحة، وفي مواجهة ديماجوجية المندوبين الموفدين، وفي مواجهة الجنون الدموي لهذا الطرف أو ذاك. وسوف يطبق هوش فيما بعد خطته الخاصة بالتهدئة.

لكن كليبر يتحمل أيضا نصيبه من المسئولية، كما يلاحظ ذلك جارا:

"أما أخطاء كليبر، لأنه ارتكب أخطاء، فسوف أذكرها، وسوف أبدأ بها. لقد كان كليبر مهيئاً، بحكم طبعه، لأن يحكم حكماً قاسياً على السلطات التي كان يتقبل أوامرها من باب الطاعة: وأحكامه الصارمة من حيث عدالتها، كانت لاذعة من حيث شكلها وتعبيره عنها. ومداهنة السلطة هي دائماً جريمة، وهي جريمة يرتكبها الجبناء؛ أما جرحها دون ضرورة بالنسبة للشأن العام، أو بعيداً عن هذه الضرورة، فهو خطأ ترتكبه النفوس المفرطة الكبرياء؛ وقد كان هذا الخطأ في أغلب الأحوال هو الخطأ الذي ارتكبه كليبر"[٦].

وبعد هذه الحرب التي كانت خسائر الجمهوريين فيها أعلى بكثير جداً من خسائر ثلاثة أعوام للحملة الفرنسية على مصر، يجري تعيين كليبر قائد فرقة في جيش السامبر والميز تحت قيادة جوردان، بعد أقل من عام من استسلام ماينس. وفي هذه المناصب العسكرية الجديدة، ينقاد إلى معارضة سان جوست، ولكن دون طائل[٧]. وفي أواخر عام ١٧٩٤، يقود بدوره حصار ماينس التي تسيطر عليها قوات الائتلاف، وهي عملية يعتبرها عديمة الجدوى وعبثية وسوف تكلف الجيوش الفرنسية ثمناً فادحاً[٨].

وبعد استدعائه إلى جيش السامبر والميز بعد فشل الحصار، يصبح المسئول الرئيسي فيه بعد جوردان، وسوف ينوب عن الأخير

في منصبه عدة مرات. كما أنه يتسنى له قيادة عمليات تجمع عدة فرق. وهكذا يتعلم قيادة كتل بشرية من عدة عشرات من آلاف الرجال، وهي مقاييس عادية للجيوش في العصر الثوري. كما أنه ينتصر في عدة مواجهات ومعارك مهمة.

على أنه يفكر، منذ أواخر عام ١٧٩٥، في التنحي، احتجاجاً على الحالة التي تترك فيها السلطات المدنية الجندي. ورسالته إلى جوردان، المرسلة من كوبلنز، والمؤرخة في ١١ديسمبر ١٧٩٥، إنما تشهد على مراعاته وحبه للجندي العادي جداً:

"أرفق لك مع هذه الرسالة، رفيقي العزيز، نسخة من الرسالة التي كتبها وأرسلها إليّ مفوض شئون الحرب شابوتو. والصورة التي ترسمها هذه الرسالة ليست مبالغة البتة؛ إلاّ أنه صحيح أنه إذا لم يمون سلاح الفرسان نفسه عن طريق مصادرات يقوم بها هو بنفسه، فإنه لا إدارة الناحية ولا إدارة الجيش سوف تكونان قادرتين على إمداده بالغذاء. ومن جهة أخرى، فإن هذا الإجراء إنما يهدد بالقضاء في عدة أيام قليلة على إمكانات العيش التي من شأن اقتصاد حكيم إطالة أمدها، ومن ثم فإن حالة موارد هذا البلد هي من التدهور اليوم بحيث أجد نفسي ملزماً بأن أقول لك إنه، في غضون عشرين يوماً، لن تكون هناك بعدُ قشة تبن واحدة ولا حشيشة واحدة للجياد. إن الأزمة عظيمة، ولا أرى أن هناك من يحاول تقديم علاج لها. وقد دفعتني هذه الفكرة إلى إرسال استقالتي إلى وزير الحربية؛ على أنه لم يقبلها. وبالرغم من ذلك، لا يمكنني إخفاء أنني عازم دائماً على الاستقالة. وأنت تعرفني جيداً بحيث لا يمكنك أن تظن أن ما يدفعني إلى ذلك هو تهديدات وتحركات العدو؛ إن القرف وحده، الذي أتجرعه عن آخره، هو الذي أملى هذا القرار. والبارحة أيضاً، بينما كنت أقوم بجولة تفقدية، وجدت عند أحد مواقع المدخل، ضابطاً يرتدي أسمالاً وطاقية ملوثة بالشحم. فسألته

ما إذا لم تكن عنده برنيطة، فأجابني بأن جميع مهماتـه قد احترقت في المعسكر من جراء حادثة، وأنه لا يحوز إمكانات نقدية لتعويضها. وقد طلبت حضوره إليّ هذا الصباح وأعطيته برنيطة وكل ما كان بوسعي إضافته إليها. والحال أن ألفاً آخرين يجدون أنفسهم في هذه الحالة نفسها. إلاّ أنه على الضباط، على مظهرهم، على استقلالهم العسكري وعلى المراعاة التي تبديها الحكومة تجاههم، إنما يتوقف الانضباط، وعلى هذا الانضباط يتوقف مصير الجيش. والحكومة لا تود أن تدرك ذلك بالمرة، فمؤخراً أيضاً، حطت من شأنهم بالإنعام عليهم بزوج جزمة. ومن ثم فإن قلوبهم مجروحة، إلى درجة أنهم يحفزون هم أنفسهم تثبيط الهمم. إنني أكتب ذلك بيني وبينك؛ إلاّ أنه يبدو أنه بعد الخدمات المهمة التي قَدَّمْتَهَا إلى وطننا، فإن أهم مايمكنك تقديمه إليه أيضا هو أن تفتح الأعين على وضعنا الحالي. والحال أن التدابير الصغيرة التي تشير إليها تعميمات وزير الحربية ليست غير مسكنات بائسة، لا يمكننا أن نأمل البتة منها خيراً"[٩].

على أن كليبر يسحب استقالته ويشارك في حملة ألمانيا الشهيرة في عام ١٧٩٦. وكانت خطة كارنو ترتأي تحركاً متوازياً لجيش السامبر والميز تحت قيادة جوردان ولجيش الراين وموزيل تحت قيادة مورو، من الولايات الرينانية إلى النمسا. وكان على بونابرت مع جيش حملة إيطاليا أن يشل حركة أكبر عدد من القوات المعادية. وكان العيب الرئيسي لهذه الخطة هو انعدام تركيز القوات الفرنسية في ألمانيا وغياب القيادة الموحدة. وهكذا فإن الجنرالات يتغلغلون في ألمانيا حتى بافاريا دون أن يتمكنوا من تنسيق تحركاتهم. وفي المقابل، فإن بوسع خصمهم، الأرشيدوق تشارلز، أن يوجه ضرباته بشكل تناوبي ضد هذا الجيش أو ذاك من الجيشين الفرنسيين. ولذا يضطر هذان الجيشان، في النصف الثاني من العام،

إلى الانسحاب عبر الراين، وهو انسحاب يعتبر من جهة أخرى نموذجاً نوعياً في التاريخ العسكري.

ويرجع فشل هذه الحملة أساساً إلى إذعان الجنرالات الفرنسيين لأوامر حكومة الإدارة. أمَّا في ايطاليا، فإن بونابرت يبدي مهارة في تركيز وحشد القوات وعندما يود كارنو أن يفرض عليه فصلاً لقواته، فإنه يرفض ذلك ويهدد بالاستقالة، مجبراً حكومة الإدارة على النزول على إرادة الفاتح الشاب. وهكذا يفوز بونابرت باستقلالية في القيادة غير معروفة في ألمانيا.

وطبيعي أن حكومة الإدارة تلقي بمسئولية الفشل على الجنرالات ويتم استدعاء جوردان. ويمارس كليبر من جديد مهام النيابة ويحاول إعادة بناء جيش قوي. وهو يحمل المموني والسلطة السياسية نفسها المسئولية عن الحالة الكارثية لعتاد وللابس جيش السامبر والميز. وعندما تقترح عليه حكومة الإدارة أن يخلف جوردان بشكل نهائي، فإنه يرفض ذلك مشيراً عندئذ إلى عدم قدرته (١٧ أكتوبر ١٧٩٦):

"بما أنني مسكون بحب بلادي حباً بالغ الحماسة، ومستعد لأن أبذل في سبيلها أخر قطرة من دمي، فإن هناك تضحية واحدة أشعر بالعجز عن تقديمها لها في أي وقت من الأوقات، إلاّ وهي تعريض مصالحها للخطر بقبول موقع لا أجدني قادراً على الوفاء بمهامه على أكمل وجه. فموقع القائد العام يتطلب رجلاً يجمع إلى مواهب قائد محنك مواهب إداري ممتاز، بل وفي الظروف الحالية، عبقرية خلاقة. وما أنا إلاّ جندي.

"ولكي يضع المرء في العمليات هذه الجسارة، هذه الشجاعة، التي تقود أحياناً إلى النجاح، يكفي للمرء أن يكون مخلصاً في أداء واجباته؛ إلاّ أنه لكي يتسنى له أن يجمع وأن ينسق فعل كل العناصر التي من شأنها أن تجعله شبه معصوم من ارتكاب الخطأ، لابد له من

أن يكون إنساناً عظيماً، إنساناً ميزته الطبيعة بـالفعل؛ فـهنا، لا يمكـن للعزيمة الأكثر وضوحاً ولا لجهود الفعـل الأكـثر إصـراراً أن تقـوم مقام ما امتنعت (الطبيعة.. - المترجم) عن تقديمـه للمـرء.

"والاعتبارات الـتي حـالت دائمـاً دون تجـاوبي، في أوقـات أخري، مع أمارة الثقـة هـذه نفسـها، مـاتزال قائمـة؛ إن أفعـالي وكلماتي كانت وسوف تظل دائمـاً واحـدة. والمسـئولية الشـخصية قلما تخيفني؛ فما الذي يمكـن أن يخيـف إنسـاناً قـدم لوطنـه كـل التضحيات التي يطلبـها؟ إن نـاصحي الأول، وهـو النـاصح الـذي أخشى عقابه دون سواه، هو شـعوري (بحـدود. - المـترجم) قـواي الخاصة، هو ضمـيري. وليـس بوسـعى تحديـه دون أن ينـزل بي العقاب. وهو يأمرني بأن لا أعرِّض للخطر مصـالح الجمهوريـة بقبـول موقع يتطلب إمكانات أعلى من إمكانـاتي.

"إنني أذعن لصوته، ومهما حدث، لـن أتنكـر لـه. ولا يسـعني أن أكون أكثر جدارة بلفتاتكم السخية وعند ظنونكـم الحسـنة، أيـها المواطنون المدراء، إلاّ إذا تمكنت أنا نفسـي مـنْ وضـع حـدود لهـا، راجياً منكم الاعتراف بالحدود التي حكمت عليَّ بهـا الطبيعـة وبـأن خير بلادي لا يسمح لي البتة بتجاوز هـذه الحـدود"[١٠].

وفي هذا النص الذي يعبر فيه كليبر عن رفضه لموقع الصـدارة[١١]، فإنه يقدم أسس موقفه التالي تجاه بونابرت. فهذا الموقـف يتكـون في آن واحد من شعور زائد عن الحد بحدوده هو الخاصة - وقد رأينا، علي أيـة حال، أنه كان يملك جميع القدرات الضرورية لأداء هذه الوظيفة - ومـن افتتان حقيقي في الوقت نفسه بالعبقرية الخلاقة، بالرجل العظيم الذي ميزته الطبيعة، وهي أسطورة مشوشة يحملها العصر في وجدانه كثقـل مضـاد وكتتمة مكملة للجفاف النقدي للتنوير[١٢]. لكنه يطرح بالفعل صـوت ضميره في مواجهة البطل.

ولئن كان يرفض من ثم موقع الصدارة لكي يتخذ في واقـع الأمـر

موقع المراقب والناقد، فلعل الهدف من ذلك أن يكون ضمانة للحدود التي لا يجب تخطيها. وهذا ما يوضحه جيداً جارا، في مقارنته بين ديزيه وكليبر، المقاتلين اللذين لقيا مصرعهما في يوم واحد:

"لم يغفر كليبر قط أخطاء أولئك الذين تتسبب أخطاؤهم في شقاء الناس: وقد بدا أنه يؤمن بأن من الواجب دائماً أن توجد إلى جانب السلطة الضخمة معارضة متململة وأن توجد إلى جانب التملقات سخريات، وحتى في ظل حكم ملكي، كان كليبر سيتحلى بهذه الشجاعة، جد النادرة، في مواجهة العروش، والتي تتمثل في الاجتراء، لأجل الحقيقة، على السلطة التي يعتمد عليها في تحقيق مجده وسعده؛ وكانت لدى ديزيه الشجاعة، ربما الأكثر ندرة بكثير في الجمهوريات الوليدة، والتي تتمثل في مراعاة ومساعدة السلطة عندما لا يبذل المرء شيئاً من أجلها ويبذل كل شيء من أجل الوطن. والحال أنه لا الأول ولا الثاني قد أبديا قط في فرنسا طموحاً إلى الموقع الأول أو إلى الدور الأول: ولو كانت أحداث الثورة قد حملتهما إلى مثل هذا الموقع، لأبقتهما مواهبهما فيه فائزين بالمجد؛ لكن ديزيه كان سيهبط منه مسروراً، لكي يخدم الوطن في تواضع تحت قيادة من يعتبره الأقدر، أما كليبر، فكان من شأنه أن يهبط منه بنفاد صبر أكبر، لكي يحتل المرتبة الثانية، نداً من حيث مواهبه وقاضياً بحكم ما سيصدر عنه من توبيخات، لذلك الذي كان من شأنه أن يتصدر القيادة[١٣]".

ومنسجماً مع نفسه، يستقيل كليبر من الجيش ويستقر في باريس، على تل شايو، في أبريل ١٧٩٧. وموقفه غير واضح في لحظة يمر فيها النظام الجمهوري بأزمة عميقة. فمن جهة، في ايطاليا، ينتصر بونابرت ويبدو أنه يحقق السلم، ومن جهة أخرى، في باريس، يتصاعد التوتر بين السلطة التنفيذية، حكومة الإدارة، والسلطة التشريعية، الجمعيتين المنبثقتين عن دستور ١٧٩٥، واللتين

يحوز الأغلبية فيهما، منذ الانتخابات الأخيرة، خصوم غالبية أعضاء حكومة الإدارة.

والحال أن التعايش المهتز بين السلطتين إنما يصبح مستحيلاً من الناحية العملية منذ اللحظة التي تعمل فيها المجالس التي يهيمن عليها التحالف بين الملكيين (الكليشيين) والدستوريين (الذين يتمنون احترام إرادة الناخبين) على زيادة العقبات التشريعية في وجه قرارات المدراء سعياً إلى جعل ممارستهم لسلطتهم مستحيلة.

وهؤلاء الأخيرون لا يجدون ملاذاً آخر غير استدعاء الجيش للتخلص من خصومهم. ويجري التفكير في البداية في هوش الذي تولى قيادة جيش السامبر والميز بعد اعتذار كليبر، إلاّ أنه يتصرف بمزيد من العجلة إذ يرسل قوات إلى مشارف باريس. وتصبح الفضيحة مدوية بحيث إنه يضطر إلى التراجع بشكل يدعو إلى الرثاء.

ولا يبقى من ثم غير بونابرت وجيش ايطاليا، لأن مورو المرابط على الراين يبدو أنه يتخذ موقف ترقب خطير يراعي الملكيين كما يراعي المدراء. ويرسل فاتح ايطاليا أوجيرو إلى باريس لتنفيذ المهمة. وسوف يحدث ذلك في ١٨ فروكتيدور (٥سبتمبر ١٧٩٧): فالجيش يحتل باريس ويتم إلقاء القبض على المعارضين بينما يهرب آخرون. وهو ما يعني في واقع الأمر الاعتراف بفشل الجمهورية كنظام نيابي مادامت نتيجة الانتخابات قد ألغيت.

وفي هذا الوضع السياسي، كان موقف كليبر أقرب إلى موقف مورو مما إلى موقف هوش وبونابرت. ولا يمكن للفصائل المختلفة أن تتجاهل وجود جنرال مهيب كهذا في باريس. وانتقاداته للحكومة التي يحملها المسئولية عن خيبات حملة ألمانيا وعن معاناة الجنود مشهورة على المستوى العام. إلاّ أنه من المعروف أيضاً أنه جمهوري مخلص ومن ثم يعادي الدسائس الملكية في

المجالس. ولما كان لا يعرف ما الموقف الذي يجب عليه اتخاذه، فسوف يراعي جميع المواقف، مع رفضه الانتقال إلى الفعل.

ووفقاً لأقوال باجول، ابن أحد رفاق كليبر، يستفاد أن هذا الأخير قد رد على عروض حكومة الإدارة:

"سوف أطلق النار على أعدائكم؛ ولكنني في الوقت الذي أواجههم فيه، سأدير ظهري لكم(١٤)".

وهكذا يمكننا أن نفهم اتجاه حكومة الإدارة إلى إيثار التوجه إلى أوجيرو. ويقدم لنا تيبودو، زعيمُ الدستوريين، كليبرَ في صورة مناوئ عميق العداوة للملكيين كما لحكومة الإدارة:

"تناولت العشاء في السادس من فروكتيدور عند وزير الحربية (شيرير) مع برنادوت وكليبر؛ كانوا غاضبين على مجلس الخمسمائة؛ وقد قالوا إنهم رأوا، في الصحف المرسلة إلى الجيش، أن الجنرالات قد عوملوا من على المنبر كمجرمين وكقطاع طرق؛ وهم يرون أنه ما من خلاص إلاّ في قيام حكم عسكري. وبعد العشاء، تحدثت بشكل خاص مع كل واحد منهم. وقد بدا لي أن كليبر لا يولي أهمية كبيرة لحكومة الإدارة ولا يثق بالمرة في بونابرت، لكنه يهتم بالحياة وبالموت في سبيل الجمهورية، وأنه مستعد بحكم هذا الدافع لمحاربة الملكيين.(١٥)".

إلاّ أنه في مقابل هاتين الشهادتين، يجب أن نورد شهادة ماتيو ديوما، أحد محركي المعارضة الملكية في المجالس:

"لم أتقاسم وهم أولئك الأشخاص من زملائي الذين كانوا يهنئون أنفسهم بالعثور على سند في الحرس الوطني وفي جمهور المواطنين. لقد كانوا يقولون إنه لا يلزم غير زعيم من أجل تفجير انتفاضة كبرى: لكنهم نسوا المحنة الرهيبة لعصر الإرهاب. وكنت أعرف على وجه اليقين النتائج التي تترتب على ترك السلطة في أيدي فصيل تسيء إليه تجاوزاته الخاصة. وكنت أعرف أنه لا يمكن

شن ثورة ضد حكومة قائمة، حتى ولو كانت أكثر الحكومات ظلماً وقهراً، إلاّ بالاستناد إلى ذريعة شرعية وإلى مرجعيات يعترف بها الشعب. عندئذ فقط تنقسم القوى المادية: إن حشد البشر المترددين أو اللامبالين إنما يضخم حجم الجمهور ويعطي لذراع الرافعة كل القوة اللازمة للإثارة وللإطاحة. (...) والحال أن واحدا من أفضل جنرالات جيوشنا، وهو جنرال كان من شأن شخصيته وشجاعته وعقليته أن تجعله مناسباً إلى أقصى حد لمثل هذا المشروع، أعني كليبر، كان موجوداً آنذاك في باريس. ولم تكن حكومة الإدارة تستخدمه البتة وكان معتكفاً في بيت ريفي في شايو (...) وقد طلب رؤيتي؛ وزرته.

"قال لي: هل لديكم وسائل ما للمقاومة؟"

"فقلت: ليست لدينا أية وسيلة من شأنها أن تمنح الرجل الأكثر جسارة الثقة في الاضطلاع بشيء مع فرصة معينة في النجاح.

"فأردف كليبر: لو كنتم فقط واثقين من حرسكم ومن بعض كتائب الحرس الوطني، على نحو ما كانت عليه في ١٣ فانديميير، فإن أوجيرو وفرقته لن يقفا في وجهي؛ ومن المرجح تماماً أنه بمجرد الانخراط في الأمر، فإن المدفعية، التي تدين قيادتها بالولاء التام لي، سوف تنتقل إلى جانبي.

"أطلعت الجنرال كليبر على قوام وتركيب الحرس الذي كان آنذاك أكثر من شبه مدرب. وكان عليَّ أن أرفض، باسم زملائي، عروضه السخية، وأن أتخلى عن البحث العبثي عن مقاومة مسلحة، ليس من شأنها إلاَّ أن تبرر عدوان حكومة الإدارة[١٦]".

وليس وجود برنادوت بريئاً. لقد أرسله بونابرت لرصد الموقف السياسي، وخاصة رأي الجيش. وهو يوفر لفاتح ايطاليا شبكة علاقاته مع القادة العسكريين للجيوش الأخرى. وهو صديق لكليبر. ومن ثم فسوف يلعب دور الوسيط بينه وبين بونابرت.

وحكمه مؤكد فيما يتعلق برغبات كليبر الفعلية: "ثلاثة من الجنرالات مرشحون لقيادة حرس مجلس الخمسمائة؛ أولهم كليبر وثانيهم ديزيه والثالث سيروربيه. وقد أحس الجميع بأن مثل هذه القيادة لا يمكن أن تكون مصدر فرح لأي من هؤلاء الجنرالات الثلاثة. وقد قال كل واحد كلمته، والتفكير الأخير هو ما يلي: هؤلاء الرجال الثلاثة لهم سمعة ممتازة، وفي حركة ما سوف يكونون مفيدين في أن يحشدوا حول الجهاز التشريعي عدداً كبيراً من الجنود والضباط من الجيوش التي خدموا فيها؛ لكن كليبر لن يقبل، فهو جمهوري بحكم نظرته الفلسفية إلى الأمور، وهو يسخر من حرج البعض ومن رعونة البعض الآخر. إلاّ أنه لو حدث الزلزال في أي وقت، فإن كليبر سوف يطل برأسه من النافذة لكي يراقب الفريقين، وسوف ينخرط في مسيرة الشرائط الثلاثية الألوان؛ وهو يتمنى أن يرى ساحات مجدك؛ وسوف أجيء به معي، وسوف يسعد بالتعرف على الرجل الذي احترَمَ غالباً مآثره السامية، في قيادة الجيوش، والأكثر من ذلك في قيادة أعنة الحكم [(١٧)]".

وقد أدي حادث ١٨ فروكتيدور إلى إبعاد كليبر نهائياً عن نظام حكومة الإدارة. وهو يتعرض للمضايقات بسبب تردداته وتحركاته غير الملائمة. والأخطر من ذلك أنه يتعرض لوشاية من جانب هوش، قائد جيش السامبر والميز. ففي ١٣ سبتمبر ١٧٩٧، يكتب هوش إلى حكومة الإدارة:

"يُملي عليَّ واجبى أن أحدثكم عن واحد من أخطر أعداء حكومة الإدارة، وهو على قرب منها. لقد توصل كليبر إلى أن يجر إلى حزب بيشجرو، صديقه الحميم، عدداً كبيراً من الرجال المعجبين بمواهبه. ويؤسفني أنني لديّ البرهان على أنه قد أغوى، بأقواله وبوعوده الكريهة، عدداً من الضباط أذكر من بينهم (...) داماس (...) وآخرين. كما أنني أعتقد أن حكومة الإدارة لن يكون

بوسعها أن تتحمل طويلاً وجود هذا الرجل علـــى قـــرب منـــها وأنهـــا سوف تضع بحزمها حداً لهذيانات بعض الأشـــخاص المنحلـــين الذيـــن يمكن لكلمة واحدة أن تجعلهم هباء منثـــوراً إلى الأبـــد[١٨]".

ومن حسن حـــظ كليـــبر، أن هـــوش يمـــوت في ١٩ ســـبتمبر ١٧٩٧ وأن حكومة الإدارة ترفض برنامجه الداعـــي إلى إجـــراء حركـــة تطهير بين صفوف العسكريين. ولو كانت وشاية هوش قـــد نجحـــت، لكان معنى ذلك أن يذهب كليبر إلى "المقصلـــة الـــتي لا تريـــق دمـــا"، أي أن يجري ترحيله إلى جوايانا. وهـــو يســـتعد للمقاومـــة بالســـلاح لكن القمع يقتصر على السياســـيين.[١٩]

أما مورو، الذي أُعفي من قيادته بســـبب موقفـــه المريـــب (إنـــه يحتفظ حتى الانقلاب ببراهين خيانة بيشـــجرو، وســـوف تكـــون جـــد مفيدة للسلطة التنفيذية في تبرير انتهاك المؤسســـات)، فإنـــه يعتكـــف في شايو مع كليبر. وإذ يسود السلم في القـــارة، فإنـــه يـــؤدي إلى عـــودة كثيرين مـــن قدامـــى جيـــوش الشـــمال والشـــرق مثـــل جـــوردان وكافاريللي، وتتشكل جماعة صغيرة حـــول الجـــنرالات تنـــاقش فيـــها المسائل العسكرية والوضع السياســـي.

وهو يرى أن الجمهورية قد فشلت، ليس مـــن حيـــث مبادئـــها، وإنما بسبب الرجال الذين يحكمونها[٢٠]. ومن ثم فإنـــه يجـــد نفســـه في هذا التباعد عن الحكومة عندما يلتقي – للمرة الأولى – مـــع بونـــابرت الذي كان برنادوت قد أشاد له إشادة حارة بـــالبطل الألزاســـي.

حواشي الفصل الأول

١- السير الأساسية لكليبر هي: ايرنوف، **الجنرال كليبر**، باريس، ١٨٦٧؛ بوجال، **كليبر. حياته. مراسلاته**، باريس، ١٨٧٧؛ جارسو، **كليبر**، باريس، ١٩٣٦؛ لوكا – دوبريتون، **كليبر**، باريس، ١٩٣٧؛ وتوجد بيبليوجرافيا تفصيلية في كليبر، ابن الألزاس، **تحية جماعية بمناسبة الذكرى المئوية الثانية**، باريس، ١٩٥٢.

٢- لوبير ديريكور، **حياة الجنرال كليبر**، باريس، ١٨٠١.

٣- لوكا – دوبريتون، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٥.

٤- "وعندما أحسن الاستبداد اختيار الحرب التي تناسب هذا البلد والأدوات التي تناسب هذه الحرب فإن الجمهورية، أو أولئك الذين يحكمونها، لكونهم كان عليهم أن يقاتلوا التعصب الديني، لم يريدوا أن يعهدوا بقيادة هذه الحرب إلاّ إلى التعصب للحرية. وقد جهلوا أنه إذا كانت الخرافات إنما تنتشر وتنتصر بالتعصب، فإن التعصب ليس من شأنه إلاّ أن يشوه ويعرض للخطر حرية قائمة على العقل ولا يجب لها أن تدافع عن نفسها إلاّ بالمواهب وبالفضائل". جارا، **كلمة تأبين للجنرالين كليبر وديزيه ألقيت في الأول من فانديمير من العام التاسع، في ساحة الانتصارات،** باريس، برومير من العام التاسع، ص١٧.

٥- "إن العسكريين الذين هم عسكريون بشكل خاص لم يحصلوا في الفانديه إلاّ على ثقة مرتبكة دائماً، ودائماً على حافة سحبها وتحويلها إلى إتهام: وقد أرسل إلى هناك عدة مرات، برتبة وبسلطة القائد العام، رجالٌ لم تكن لهم قط أية رتبة عسكرية قبل أن تكون لهم الرتبة التي تتصدر كل الرتب، جرى إبراز اسمائهم الغريبة على الجيوش في اللجان وفي المجتمعات العسكرية التي تشمل هؤلاء الجنرالات الوطنيين أخيراً الذين كانوا يريدون دائما القضاء على المتمردين ولم يتمكنوا قط من إلحاق الهزيمة بهم" (المصدر السابق، ص٧).

٦- **المصدر السابق**، ص٢٤.

٧- "في ليلة ٢٥- ٢٦ مايو، عقد النواب سان جوست ولوبا ولوفاسور مجلساً حربياً في قيادة توان العامة. كان الجيش شبه مفكك؛ والحال أن الجنود الذين بلا ثياب وبلا أحذية، والذين أضناهم التعب والجوع، كانوا بحاجة إلى الراحة؛ ومن جهة أخرى، كانت هناك حاجة إلى وقت لتعويض العتاد الذي ضاع في الهزائم الأخيرة. وقد أجمع الجنرالات على التمسك بموقف دفاعي لمدة عدة أيام، عندما قام سان جوست، الذي رأس هذا المجلس، والذي لم يصغ البتة لجميع تحذيراتهم ولا لحجج كليبر، بإنهاء المناقشات، قائلاً بصوت عال: "لابد من احراز انتصار غداً للجمهورية؛ فلتختاروا بين حصار وخوض معركة". ومن ثم فقد جرى اتخاذ قرار بالعبور الثالث لجيش السامبر: والحال أن هذه العزيمة، الجديرة بالثناء في ظرف مختلف تماماً، قد انحطت إلى خطأ جسيم، لأنه لم يكن هناك شك في أن من الأكثر حكمة انتظار وصول الجنرال جوردان الذي كان يتحرك عبر الدينان مع جيش موزيل: ومن ثم كان بالإمكان تجنب التعرض من جديد لانتكاسات كان من شأنها أن تجر إلى عواقب وخيمة، لو كان العدو قد أحسن الاستفادة منها" (جوميني، **التاريخ النقدي والعسكري لحروب الثورة**، بروكسل، ١٨٤٠، المجلد ٢، ص٣٢).
ويرى الشارح العسكري الكبير أن كليبر "يمكن اعتباره واحداً من أفضل جنرالات الثورة؛ ونحن لا نتردد في وضعه بعد بونابرت ومورو مباشرة" (المجلد٢، ص٢٢).

٨- "إنني لن أطمس المجد الذي أحرزه الجنود بالتحمل وبالشجاعة التي تحملوا بها المهام والحرمانات خلال أقسى شتاء في هذا القرن. إن ربع رجال قوة الحصار كانوا في المستشفيات بصورة متصلة، وقد هلك النصف من البؤس ومن البرد، وهي نتائج مؤسفة للفوضى التي سادت آنذاك في جميع أجزاء الإدارة". (**المصدر السابق**، المجلد٢، ص١٢٩).

٩- باجول، **مصدر سبق ذكره**، ص ص ١٩٦ – ١٩٧.

١٠- **المصدر السابق**، ص٢٤٦. يواصل كليبر شارحاً وضع الجيش. "إن انتكاساته لا يمكن أن تُرد إلى المعارك التي خاضها، ولكن ما الذي يمكن أن يفعله الرجل العاري والجائع حتى وإن كان الأكثر شجاعة؟ عندما يرى الجندي أن الحكومة مهتمة بمساعدته، وأن هناك مايمكنه مساعدته على الاحتماء من تقلبات الفصول، وأن الإمدادات الغذائية مؤمنة ولو جزئياً؛ عندئذ، أيها المواطنون المدراء، سرعان ما سوف تجد الجمهورية انتصارات جديدة تحتفل بها. إن جنود السامبر والميز مازالوا هم عين الجنود الذين طردوا النمساويين من بلجيكا وطاردوهم حتى حدود بوهيميا. ولاعتزازهم بأنفسهم وبالقضية التي يدافعون عنها، فإن أبناء الثورة هؤلاء سوف يكونون دائماً أرسخ سند لها.

"وقد ترتب عدم الانضباط والعصيانُ على غياب توزيع الأدوار، وعلى عدم وجود أي نوع من التنظيم بعد في الخدمات. وهذه الجرائم وكل الجرائم التي ترتبت عليها سوف تختفي مع اختفاء السبب الذي أنتجها. وبمجرد إصلاح هذه العيوب، سوف نستأنف الهجوم؛ سوف نهاجم العدو حيثما لقيناه وسوف يتوج النصر من جديد جهودنا، النصر الذي كان حليفاً منذ وقت طويل جداً لجيوشنا. وليس بوسع القوى التي تقف في وجهنا أن تفرض نصراً علينا ؛ وبمجرد ما أن يتسنى لنا حشد بعض وسائط النقل، وبمجرد ما أن يكف الجندي عن الخوف من الجوع ومن البرد، سوف نتجه إلى دعم الانتصارات الرائعة لجيش الراين وموزيل، والمشاركة في الأحداث التي لابد لها من أن تجيء لنا بالسلم المجيد، السلم الذي من شأنه أن يسمح لنا بأن نجني ثمرة الجهود المبذولة للحصول عليه"(ص ٢٤٧).

١١- مؤخراً أيضاً وجه جورج لوفافر لوماً إلى موقف كليبر: "من الغريب أن نرى في العام الثاني أن جنرالاً يسمح لنفسه بمثل هذه الإيماءة أمام العدو". **فرنسا في ظل حكومة الإدارة**، باريس، ١٩٧٧، ص ٢٧٠. وبوجه عام، فإن التراث الجمهوري لا يقدر شخصية كليبر إلاّ بدرجة متوسطة.

والمثال الأحسن علي ذلك هو لاروس في معجمه: **المعجم الشامل الكبير للقرن التاسع عشر**: "مما لا جدال فيه أن كليبر كان جنرالاً ذكياً وشجاعاً. ولا يمكن الشك لا في شجاعته ولا في سمو نفسه ولا في نزاهته التامة. فما الذي كان ينقص مجده؟ لماذا، مثلاً، نتردد في وضع اسمه إلي جانب اسم هوش، منافسه الشهير؟ نحن لا نعتقد أن هذه المكانة الأدنى ترجع إلي الغيرة البائسة إلى حد ما والتي كانت تكمن في قلب هذه الشخصية العظيمة، لكنه كان يفتقر إلي تلك النار المقدسة، تلك الوطنية السامية، ولنقل، تلك النزعة الجمهورية المتحمسة، التي ألهمت كل أعمال هوش وملأت حياته. لقد كان كليبر يقاتل من أجل المجد، ومن أجل البلد إن شئتم، لكنه لم يقاتل قط من أجل مبدأ. وهذا هو الذي شكل خواء عمله، وعاد عليه بهذه المهانة، غير المبررة من جهة أخرى، والتي تتمثل في التكريم الذي رأى ملك يحكم بالحق الإلهي أن من واجبه منحه لرفاته. والحال أن رفات الجمهوريين والعظماء هي في مأمن من هذه الإهانة الأخيرة (المجلد٩، الجزء٢، **كليبر**، ص ١٢٢٣).

١٢- حول هذه المسألة، انظر كتابي: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم في فرنسا من عام ١٦٩٨ إلى عام ١٧٩٨**، دار نشر إيزيس، استنبول — باريس، ١٩٨٧.

١٣- جارا، ص ص ٥٦ —٥٧.

١٤- باجول، ص ٢٦٥.

١٥-ا. س. تيبودو، **مذكرات حول المؤتمر وحكومة الإدارة**، باريس، ١٨٢٤، المجلد ٢، ص ٢٥٧. من المرجح أنه يستبق ما سوف يؤول إليه موقف كليبر تجاه بونابرت.

١٦- ماتيو ديوما، **ذكريات**، باريس، ١٨٣٩، المجلد ٣، ص ص ١١٤ — ١١٦. يحدث المشهد في ١٦ فروكتيدور.

١٧- **مراسلات لم يسبق نشرها لنابوليون بونابرت مع البلاطات الأجنبية والأمراء والوزراء والجنرالات الفرنسيين في الخارج**، باريس، دار بانكوك، ١٨١٩،

المجلد٥، ص ١١٦. سوف تتاح لي الفرصة للاستشهاد كثيراً بهذه الطبعة مشيراً إليها بالحرف ب. وهي تطرح عدة مشكلات تتعلق بصحة رسائل كهذه الرسالة حيثما لا تظهر الأصول في الأرشيفات، إلاّ أنه حيثما توجد أصول فإن النقل يجري بشكل أمين عموماً.

١٨- رسالة نشرها أندريه روكروا في: **أوراق التاريخ**، باريس، ١٩١١، المجلد ٦، ص ص ٣٣٠ – ٣٣١. وحول المسألة برمتها، تظل هناك أهمية أساسية لعمل البير سوريل: **بونابرت وهوش في عام ١٧٩٧**، باريس، ١٨٩٦، وكذلك للمجلد الخامس، **بونابرت وحكومة الإدارة**، من مشروعه الضخم، **أوروبا والثورة الفرنسية**. والحال أن روبير جارنييه، في كتابه الذي صدر مؤخراً، **لازار هوش أو شرف السلاح**، باريس، بايو، ١٩٨٦، إنما يسكت تماما عن وشايات هوش بعد ١٨ فروكتيدور بينما يورد كتاب البير سوريل في قائمة مراجعه.

١٩- لوبير ديريكور، ص ١٢٠: "لقد كان كليبر يتمتع بجدارة عالية، وكان يتميز بطابع بالغ الصراحة بحيث يتعذر أن لا يبدو مصدر خطر في نظر من يعدون قوائم النفي. ويقال إنه كان علي قائمة الهالكين، إلاّ أن بقية من الحياء، من مؤاخذة الضمير ربما، بالرغم من أن هذا لم يكن وارداً، قد أدت إلي شطب اسمه (...). ومن المؤكد أنه ما كان ليسقط حياً بين أيدي المستبدين، فمن المؤكد أنه كان سوف يهلك، لكنه كان سوف يسبق ذلك بارتكاب مذبحة كبرى في صفوف أولئك الذين يجدون الجرأة على المساس به (...). وقد قال إن موتي عندئذ بهذا الشكل سوف يكون، على الأقل، مفيداً، فمن المؤكد أنه سوف يخلص وطني من بعض المجرمين".

٢٠- **المصدر السابق**، ص ص ١٢٣ – ١٢٥: "لقد كانوا الشهود الهادئين على الأسلوب الذي استخدمت به حكومة الإدارة الانتصار الذي أحرزته للتو. ولكن ما أطول تألمهم وهم يرون وطنهم الذي كابدوا في سبيله الكثير من المخاطر والذي عرضوا أرواحهم للموت في سبيله مراراً، وقد سقط في أيدي الهوس الجنوني لرجال كان الحكم والتكدير والاستبداد بالنسبة لهم مترادفات! رجال لم

يكتفوا ببشاعات الحرب الخارجية فأخذوا على عاتقهم مهمة إثارة الفرقة بين صفوف المواطنين وفرض الحرب الأهلية في كل أرجاء الجمهورية (...) وما أكثر ما اضطرت روح كليبر الجمهورية حقاً إلى المعاناة عند رؤية مثل هذا المشهد، وهو الرجل الذي، إذ تغذى على مأثورات السياسات الأكثر حكمة، كان يتميز بأعظم سمو في الأفكار! وما أكثر ما كان عليه أن يتذكر نقاشاتنا في عام ١٧٨٩ وفي عام ٩٠ ويقول إن هذه ليست الجمهورية التي طالما حلمنا بها".

والحال أن عدم الارتياح هذا تجاه الجمهورية إنما يجد تفسيره في عين ظروف الوضع السياسي للثورة الفرنسية. وقد أوضح ذلك ج. ر. سوراتو تماما في مقاله التركيبي، **حكومة الإدارة، وجهات نظر وتفسيرات بالاستناد إلي المؤلفات الحديثة (آنال إستوريك دو لا ريفولوسيون فرانسيز**، ١٩٧٦، ص ص ١٨١ ـ ٢١٣) "كان البير ماتييه وجورج لوفافر علي اتفاق على أن الجمهوريين لم يكونوا يشكلون في عام ١٧٩٢ وفي عام ١٧٩٥ غالبية الفرنسيين، فلأسباب مختلفة، خاصة الأسباب الدينية، كانت هذه الغالبية متعلقة دائماً بالشكل الملكي للحكم، وذلك بالتأكيد شريطة قبول هذه الملكية لإصلاحات ١٧٨٩، وأن تكون دستورية وأن ترفض بشكل صريح النظام السياسي والاجتماعي القديم. وهو أمر كان غير وارد في عام ١٧٩٢، حيث كان الملك المخلوع يعتبر علاوة علي ذلك خائناً للأمة وعميلاً للأجنبي. كما كان هذا الأمر غير وارد أيضاً في عام ١٧٩٥، إذ كان المطالب بالعرش معادياً لقيام حكم ملكي دستوري كما كان معادياً في الوقت نفسه للتخلي عن الامتيازات.

"(...) وإذا كان الفرنسيون في عام ١٧٩٩ كانوا مايزالون ملكيين في غالبيتهم فمن المحتمل، إن لم يكن من المرجح، أن السبب في ذلك هو أن المشهد الذي أبدته جمهورية حكومة الإدارة لابد أنه لم يكن مساعداً بدرجة كبيرة علي تعزيز صورة هذه الجمهورية... و لم يكن بوسعهم إلاّ أن يتبنوا نظام مَلِكٍ جمهوري ينفذ الشروط المطلوبة. والحال أن بونابرت

سوف يكون، كما نقول اليوم، منسجماً مع هذه "الصورة النموذجية" لهذا الملك الجمهوري المنشود من جانب غالبية الفرنسيين".

والواقع أن النظام كان مضطراً، لكي يحيا، إلي استخدام وسائل تتعارض مع مبادئه. ومن هنا ارتباك جمهوريين نزيهين ومخلصين مثل كليبر في ١٨ فروكتيدور الذي يوضح استحالة حدوث سير عمل طبيعي للمؤسسات. وعندئذ سوف يصبح بونابرت هو الملاذ الوحيد. ومن ثم ينجذب كليبر إليه، إلا أنه سوف يكون أيضاً واحداً من أوائل من خيبت البونابرتية آمالهم.

الفصل الثانـــي

اللقاء مع بونابرت

في أكتوبر ١٧٩٧، يرجع بونابرت إلى باريس ويجري تكليفه بإعداد وقيادة حملة ضد انجلترا. أما كليبر فهو يرشح نفسه في انتخابات العام السادس في الراين الأعلى وهو يبدو في نظر الناخبين يعقوبياً متطرفاً ومن ثم لا يتم انتخابه.

وهو يتلقى آنذاك من بونابرت، عبر وساطة كافاريللي، اقتراحاً بالمشاركة في الحملة الجديدة.

فما هو السبب في هذا الاختيار؟ من الواضح أن بونابرت كان على علم بسجل كليبر الرائع في الخدمة. فبالاشتراك مع مورو، كان الوحيد الذي تحرك في أواخر عام ١٧٩٦، في لحظة كان جيش حملة إيطاليا يمر فيها بوضع صعب وحيث كان بوسع حركة على الراين أن تخفف الضغط على قوات بونابرت(١).

وبعد ذلك بوقت قصير، يتأكد كليبر من أن فرقة برنادوت، التي كان من المقرر أن تعزز جيش ايطاليا، لم يكن يعوزها شيء. ويمكن لنا عندئذ أن نتصور بشكل مشروع أن بونابرت كان يحترم (كليبر) الأكبر منه سناً احتراماً كبيراً.

ومكانته السياسية هي من القوة بحيث إن حكومة الإدارة لم يعد بوسعها مناقشة قراراته في المجال العسكري، خاصة فيما يتعلق باختيار ضباطه الرئيسيين.

ويذهب كتاب **التاريخ العلمي** إلى أن كليبر كان متردداً:

"إن كليبر الوحيد، المعتكف في شايو، قد بدا أنه يريد الابتعاد. لقد كان يكن ضغينة ضد **الآفوكات** (المحامين) (هكذا كان يسمي حكومة الإدارة) وقد التزم هدوءه الألزاسي، إلاّ أنه عندما جاء يوماً لزيارة بونابرت، اقترح عليه هذا الأخير أن يخرج معه (إلى الحملة على انجلترا – المترجم). فرد كليبر: "ليكن، ولكن هل سوف يوافق الآفوكات على ذلك؟"، فأجابه بونابرت: "سوف أتكفل بذلك". فقال كليبر الذي كان ما يزال يفكر في النزول إلى انجلترا: "حسناً! إذا ما أنزلت حراقة (سفينة كانت تستخدم آنذاك في حرق سفن العدو – المترجم) إلى التاميس، فلتضع فيها كليبر، وسوف ترى عندئذ ما الذي يمكنه عمله [٢]".

ويقدم تيبودو دافعاً آخر لكليبر، هو أن يعرف بشكل أفضل هذا البطل الشاب، الذي من المرجح أنه يذكره بمارسو الذي مات في السنة الماضية والذي قد يبدو له أنه يمثل حلاً للمأزق السياسي:

"إن الجنرال كليبر، الذي كان يمقت بونابرت من كل قلبه، قد قال بلهجته الحيوية الفظيعة أنه إنما يخرج أيضا لكي يرى ما الذي يحمله هذا البـ... القصير في أحشائه [٣]".

ويظهر اسم كليبر مع رتبة ومهمة قائد فرقة في قرار حكومة الإدارة الصادر بتاريخ ٢٣ نيفوز من العام السادس (١٢ يناير ١٧٩٨) [٤].

ويخرج كليبر لتفقد الإمكانيات التي تتيحها موانئ نورماندي، بينما يتفقد ديزيه بريتانيا وكافاريللي الشمال وبونابرت مداخل المنخفضات (بلجيكا). وتقود المناقشات التي جرت بينهم في أواخر فبراير إلى استنتاج أن الإنزال المباشر في انجلترا مستحيل.

والحال أن تاليران كان قد قدم لحكومة الإدارة منذ ١٤ فبراير ١٧٩٨ مذكرة ترتأي حملة على مصر [٥]. ويجري نقل التحرك فوراً من الجزر البريطانية إلى مسرح العمليات الجديد. وتتخذ حكومة

الإدارة القرار في ٥ مارس ١٧٩٨ بحثٍ من بونابرت.

وبالرغم من أن كليبر، شأنه في ذلك شأن كافاريللي، كان بالتأكيد على علم بتغير الهدف، إلاّ أنه لم يعلم إلاّ في ٢١ ابريل ١٧٩٨ بأن حكومة الإدارة قد حددت له مهمة:

"العمل تحت إمرة القائد العام بونابرت في الحملة التي يجري الإعداد لها في طولون".(٦)

وشهادة ايرنوف تقدم التحديدات المتعلقة بهذا التاريخ:

"كان كليبر على علم بالفعل بسر الحملة، لأنه كتب إلى ايرنوف، قبل ذلك بعدة أيام، راجيا اياه" أن يبحث عن وأن يسلم، فوراً، إلى مساعده كازال، ما يمكن العثور عليه من أهم الأعمال في أمانة الجيش من مذكرات وخرائط حول الهند وفارس ومصر". و قد أخذ والدي على عاتقه مهمة نقل هذه المذكرات؛ وكثيراً ما حدثني عن لقائه مع كليبر، الذي رآه في تلك المناسبة لآخر مرة. وكان معتكف الجنرال الشهير عبارة عن بيت صغير معزول، يقع على تل شايو، في مواجهة ساحة مارس، في الشارع الذي سمي من بعد باسم شارع المعارك. والحال أن كليبر الذي كان يرتدي دثارا فضفاضاً أخضر اللون له ياقة وزخارف براندبورية، وفقاً لموضة ذلك الزمن، كان منكباً على دراسة خريطة لمصر؛ ولم يلحظ دخول الضابط الشاب الذي وقف بلا حراك، خوفاً من إرباك فكره. كان كليبر يتتبع بإصبعه مجرى النيل، متوقفاً، من مسافة إلى أخرى، عند ساحات القتال المرجحة؛ وربما كانت هليوبوليس (عين شمس) واحدة من تلك الساحات! وبعد بضع دقائق، رفع رأسه فجأة وهو يهز جمجمته التي لها شكل جمجمة الأسد، كما كانت عادته، وثبت نظرة واضحة وعميقة على أبي، الذي عرفه على الفور. (...) وقد وجه إليه عدة أسئلة وبدا مرتاحاً لإجاباته. ثم قال في النهاية: "حسناً، إنني أود عمل شيء ما لأخ من إخوة السامبر

والميز. إن والدك لن يخرج معنا وإنني لأشعر بالأسف لذلك، فقد كان بوسعه أن يكون أكثر فائدة هناك مما في هذا المكان. لكنك سوف تجيء معي كمساعد لي، أليس كذلك؟ إننا سوف نذهب إلى بلد جميل سوف نجترح فيه مآثر عظيمة[٧]".

وهذه الشهادة دالة على نوع الحماس الذي واكب الإعداد للحملة[٨]. كما يرجع إشراك كليبر إلى رغبة بونابرت في أن يصور نفسه بالفعل في صورة حاشد للفرنسيين في تلك اللحظة التي تتميز باختتام عهد الثورات:

"لقد اتخذ بونابرت موقف الكاهن الأكبر الذي يملك وحده مفتاح سر عميق؛ ومارس هيمنة عظيمة على كل ما يتعلق بالحملة؛ وهو يقبل ويرفض ويختار رجاله. وبالنسبة له، لم يكن هناك فرق بين جمهوري أو ملكي، أرستقراطي أو يعقوبي، شريطة أن يتسنى له استخدامهم جميعاً في تحقيق أهدافه[٩]".

ويوافق كليبر على هدف الحملة: لأنه يجب شن هجوم ضد إنجلترا، وبما أن الجزر البريطانية عصية المنال، فإن استهداف مصر وطريق الهند يبدو له بمثابة الحل الوحيد. والمطمح الاستعماري ثانوي في تفكيره، وفكرة اجتراح "مآثر عظيمة" تكفي لإرضائه. ورسالته إلى مورو، والمؤرخة في ١٨ مايو ١٧٩٨، عشية إقلاع الحملة، إنما توضح ذلك جيداً:

"لابد أنك على علم بسر حملتنا. وقد سمعت أنك لا توافق عليها. وكنت أود أن يكون موقفك في هذا الصدد أقل تعجلاً. فعندما يقوم المرء بالشيء الوحيد الذي يمكن له القيام به، تعتبر العملية مناسبة، وذلك لمجرد أنه يتعذر القيام بما هو أفضل. إلا أنه عندما توجد في نهاية كل ذلك نتائج عظيمة يمكن الأمل فيها، فإنه يبدو لي أن من الواجب الموافقة[١٠]".

على أنه كان على وشك أن لا يرحل وذلك بسبب

التعقيدات الأوروبية. ووفقاً لنابوليون في سانت هيلانة:

"عندئذ عرض نابوليون ترك ديزيه وكليبر؛ فبوسع مواهبهما أن تصبح مفيدة لفرنسا. لكن حكومة الإدارة رفضتهما ولم تكن تقدرهما. فقد قالت: إن مصير الجمهورية لن يتوقف على جنرالين؛ إنها سوف تتمكن من حشد جمع من الجنرالات حتى يتمكن الوطن من الانتصار، إذا ما تعرض للخطر؛ إن ما نحتاج إليه بالأحرى هو الجنود لا الجنرالات[11]".

ورطانة حكومة الإدارة هذه إنما تفصح عن التدهور العميق للعلاقات بين كبار الضباط والسلطة المدنية. وفيما يتعلق بهذا النوع من الديماجوجية والقائم على إيجاد تعارض بين الجنرالات والجنود، فقد سبق لكليبر أن صادفه بالفعل في الفانديه ولم يخف سخطه عليه.

على أن السرعة التي يتم بها تجهيز الحملة – صدر قرار القيام بها في ٥ مارس وغادرت طولون في ١٩ مايو ١٧٩٧ – إنما توضح تماماً أن فرنسا زمن حكومة الإدارة ليست مفككة بالدرجة التي كان يجري تخيلها، وأن جهازها العسكري هو على أية حال جهاز كفء بشكل ملحوظ[12].

حواشي الفصل الثاني

١- "تسير الأمور سيراً أحسن إلى حد ما على الراين، وقد ألحق مورو الهزيمة بالعدو، ويحل كليبر محل بورنونفيل: إن كل شيء يتحول تحولاً جد ممتاز" (رسالة من بونابرت إلى أخيه جوزيف، ٢٥ أكتوبر ١٧٩٦، **المراسلات**، المجلد ٢، ص ص٩٦-٩٧). أنظر أيضا رسالته إلى ماسينا بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٧٩٦ (**المصدر السابق**، المجلد٢، ص ص٨٥-٨٦).

٢- **التاريخ العلمي**، المجلد٣، ص ص ٣٢ - ٣٣.

٣- **تيبودو**، المجلد٢، ص٣٤٨

٤- **المراسلات**، المجلد٣، ص ٦٣٢.

٥- **لا جونكيير**، المجلد١، ص١٥٣.

٦- **المصدر السابق**، ص٣٤٣.

٧- إيرنوف، ص ص١٦٠ - ١٦١. ينتهي النص على النحو التالي: "طبيعي أن أبي لم يكن ليود ماهو أفضل من ذلك، لكن الجنرال ايرنوف، الذي تحدث إليه كليبر عن ذلك في المساء نفسه، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يعرض ابناً وحيداً إلى صدف حملة كهذه. ولو كان قد تجاوب مع رغبة كليبر، لكان من المرجح أن يجد هذا الأخير له اليوم كاتب سيرة على الأقل".

٨- تيبودو، المجلد٢، ص٣٤٦: "لقد جند الجنرال بونابرت من كل حدب وصوب ضباطاً وجنوداً، علماء وأدباء، عمالاً وفنانين. وحشد معدات وأدوات وكتباً وآلات ونماذج؛ والواقع أنه بدا بكل هذه الاستعدادات كما لو كان يتجه، في صورة كولومبوس جديد، إلى اكتشاف عالم وإلى نقل الحضارة إليه. وقد تجمع كل ذلك في طولون؛ وكان يمكن القول إن باريس سوف تهاجر إلى البحر المتوسط. وبالرغم من كل جهاز الحرب، فقد جرى الرحيل كما لو كان إلى نزهة استمتاع. وكان الأمر أشبه بمهرجان؛ وكان عند أولئك الذين أشركوا فيها حماسة جد مختلفة عن

تلك التي تسبق المعـــارك، و لم يكـــن دينـــون يتحـــدث إلاً عـــن الراقصـــات الشرقيات، وعن صفو السماء وعن العطور التي تفوح بهـــا أرض الميعـــاد".

٩- **المصدر الســابق.**

١٠- رسالة من كليبر إلى مورو بتـــاريخ ١٨ مـــايو١٧٩٨.

١١- رسالة من نابوليون إلى مونتولـــون. لاجونكيـــير، المجلـــد١، ص٣٩٤.

١٢- يورد أ.ف.آرنو، وهو أديب شهير في ذلـــك العصـــر، حكايـــة مثـــيرة حول اجتياز البحر. فقد تواجد للتحـــدث مـــع بونـــابرت في كابينـــة هـــذا الأخير عن المقارنة بين مآثر هومـــيروس وأوســـيان: "لقـــد احتـــج الجـــنرال عندما انفتح الباب وظهر دوروك. قال بونـــابرت عابســـاً: "مـــاهذا؟ إنـــني لم أطلب أحداً، لم أدق الجرس أبـــداً" فقـــال دوروك: "أيـــها الجـــنرال، بمـــا أن الأسطول يوجه الأشرعة استعداداً للتوقف، فإن الجـــنرال كليـــبر قـــد اغتنـــم هذه الفرصة لكي يراك. وهو موجـــود في غرفـــة المجلـــس". فـــرد بونـــابرت: "ألم أقل لك أن تنتظر دق الجرس حتى تدخل؟ هـــل دققـــت الجـــرس؟ كيـــف تجيز لنفسك الخروج على أوامـــري؟" فـــرد دوروك: "أيـــها الجـــنرال، لقـــد تصورت أن الظرف..."، فقال بونابرت: "تصورك سيئ. لا شـــيْ يجـــيز لـــك عدم طاعة الأوامر، أخرج ولا تعد إلاً إذا طلبتـــك، أخـــرج".

"وقد خرج دوروك مرتبكاً تماماً. و لم أكن أقل ارتباكـــاً منـــه. وقـــد أعقبـــت هذا الانفجار بضع ثوان من الصمت. ومع اختفاء كل علامـــة مـــن علامـــات المرح، قلت له: "أيها الجنرال، لقد كنـــت قاســـياً جـــداً مـــع هـــذا التعـــس دوروك". فرد: "أليس عسكرياً؟ ألا يعرف معنى الأمـــر؟". فقلـــت: " الواقـــع أن الظرف خاص؛ وربما كانت لدى الجنرال كليبر أشـــياء مهمـــة يـــود قولهـــا لك، بل ربما كانت أكثر أهمية من الأمور الـــتي أحدثـــك أنـــا عنـــها. وليـــس بوسعه أن يرجع عن طيب خاطر"، فقال: "لا دخـــل لأحـــد في الحكـــم علـــى مدى أهمية الأمور التي نتحدث فيها. ولو كنـــا نتحـــدث عـــن أمـــور أهـــم، لقطعوا حديثنا بمثل هذا المسلك"، فقلت: "ولكن، بعد قســـوتك هـــذه، ألـــن ينسبوا إلى حديثنا أهمية تختلف تماماً عن أهميته الفعلية؟ ســـوف يتخيـــل كليـــبر

أننا نقرر هنا مصير أوروبا، مصير العالم، في حين أننـــــا نتحـــدث عـــن أمـــور بريئة، إن كانت هناك مثل هذه الأمور، في حين أنني أدافـــــع هنـــا، كالمحـــامي باتلان، عن هوميروس ضد الحورية كاليبســــــو".

"وإذ دفعته هذه المزحة إلى الضحـــك قـــال: "أرجـــوك أن لا تـــولي لي أهميـــة أكبر من الأهمية التي أســـتحقها".

"ثم نهض، وقال وهو يتجه إلى الباب، دون أن يترك خفه مــــع ذلـــك: "دعنـــا نذهب لرؤية كليـــبر" (**ذكريـــات ســـتيني**، بـــاريس، ١٨٣٣، المجلـــد٤، ص ص٨٦-٨٨).

الفصل الثالث

الإسكندرية

العمل المثالي بالنسبة لكليبر هو قيادة فرقته، إلاً أنه، بما أنه قد جُرح خلال الاستيلاء على الإسكندرية (الأول من يوليو ١٧٩٨)، يتلقى من بونابرت مهمة حكم الإسكندرية ونواحيها خلال فترة تماثله للشفاء من إصابته. والمهمة مهمة، فعليه أن يؤمن مؤخرات الجيش والاتصالات مع الأسطول الراسي في مرسى أبو قير المجاور. أما مينو، الذي جرح هو الآخر، فإنه يحصل على قيادة رشيد.

وفي ذلك الزمن، كانت الإسكندرية مدينة مجردة من مجدها القديم. وهي ضحية لمنافسة رشيد التي تشهد نمواً سافراً. والحال أن افتقارها إلى الدينامية الاقتصادية وأوبئة الطاعون جد المتكررة في القرن الثامن عشر، إنما تؤدي إلى اختزال سكانها إلى ما بين خمسة وستة آلاف نسمة[١].

على أنها تظل موقعاً تجارياً نشيطاً، وثغراً توجد فيه قنصليات أوروبية ومدينة إسلامية عامرة ببنيتها التحتية الدينية من مساجد ومدارس لتعليم القرآن.

وإذا كانت المدينة لا تحيا إلاً على التجارة – تسكن هناك جماعة سكانية مهمة قادمة من جميع ولايات الدولة العثمانية (أتراك ومغاربة ويهود ويونانيون وشوام مسيحيون) – إلاً أن الجماعة المهيمنة التقليدية لا تتألف من التجار، بل، كما هي الحال في المدن العثمانية الأخرى، من أهل الشريعة وأهل السيف. ومن جهة أخرى يكثف التجار علاقات الحماية والاستغلال كما يكثفون الأواصر

الزواجية مع الجماعة المهيمنـــة.

والحال أن هذا الإطار الاجتمـــاعي هـــو الـــذي يســـمح بفـــهم الصعود الاجتماعي للسيد محمد كـــريم الـــذي يتصـــدر الحـــوار مـــع الفرنسـيين[٢].

ومحمد كريم، الذي من المرجح أنـــه قـــد ولـــد في عـــام ١٧٤٥، من عائلة من الأشراف، أي أحفـــاد النـــبي، وإن كـــانت ذات وضـــع اجتماعي متواضع، تلقي تعليمـــاً إســـلامياً وافيـــاً في مـــدارس تعليـــم القرآن في الإسكندرية. وكان والده يريد له أن يصبـــح مـــن العلمـــاء، فقيهاً في العلوم الإسلامية ومن ثم قاضيـــاً، وهـــي مهنـــة رائجـــة بـــين الأشراف. ولذا فإنه يستعد لمواصلة دراســـاته في الأزهـــر في القـــاهرة. على أن الاختفاء المبكر لربٍ الأسرة يحبـــط المشـــروع ويجـــبر الشـــاب على كسب عيشه فـــوراً. إن الطريـــق الملكـــي للصعـــود الاجتمـــاعي لمصري في القرن الثامن عشر إنما يصبح مســـدوداً في وجهـــه.

ويبدأ العمل في البداية كصـــبي عنـــد قبـــاني (وزان) ثم يســـتقل بالعمل. وهو يتمتع عندئذ بســـمعة ضخمـــة كرجـــل نـــزيه كمـــا يتمتع بهيبة اجتماعية معينة لا تعوض عـــن إخفـــاق طموحاتـــه الأولى. وحتى يتسنى له الصعود على المســـتوى الاجتمـــاعي، فســـوف ينـــدرج في الشبكة السياسية للزعيم المملوكي الكبير مـــراد بـــك.

ويشهد الجبرتي على ذلـــك:

"أحبه الناس واشتهر ذكره في ثغر سكندرية ورشيد ومصر واتصـــل بصالح بيك حتى كان وكيلاً بدار السعادة وله الكلمة النافذة في ثغر رشـيد دون سكندرية حتى صَيَّرَ رشيد وضواحيها كالالتزام له ويحكم فيها بما أراد وأقام بها رجلاً رومياً [٣] كرتلي يقال له عثمان خجا فتحكم بها وتنوع في مصادرة أهلها واستجلب الأموال لمخدومه بكل حيلة، فأتحد بـــه الســـيد محمد المذكور وتوصل به وبغيره إلى صالح بيك ثم به إلى مراد بيك فتقـــرب له بأمور تتعلق بالثغر".

ولابد أن هذا الحدث الأساسي قد حدث بعد عام ١٧٩١، عندما استعاد مراد وإبراهيم السيطرة على مصر السفلى. والحال أن الإسكندرية كانت بشكل واضح بؤرة للمعارضة للمماليك ولسياستهم التي تتميز بالمصادرات وبالمظالم. ويقارن الجبرتي بين مسلك العلماء العادل والمتوازن والعنف الكارثي الذي يلجأ إليه وكلاء المماليك. وإذا ماصدقناه، فقد كانت الإسكندرية هي المدينة الإسلامية المثالية قبل هيمنة كريم هذا الذي أفسدها:

"فوقع (محمد كريم) من مراد بيك موقعاً ووافق منه الغرض الذي كان يرومه، فإن الثغر السكندري كان محترماً وأهله مؤتلفون وكلمتهم متفقة فلا تنفذ أوامر الأمرا بمصر فيهم ولا يتحكمون به كتحكمهم في غيره ولا يتمكنون من مصادرة أحد منهم في ماله أو متاعه وليس للسردار المتولي من طرفهم ومعلم الديوان إلاّ القوانين المعلومة.

"وعندهم رجل من الفقها المالكية يسمى الشيخ محمد المسيري يلقي لهم الدروس ويقرر لهم فقه الإمام مالك ويظهر التزهد عما بأيديهم ويتورع عن الشبهات ويتباعد عن المحرمات، فاجتمعت قلوبهم على محبته وعكفوا على طاعته بحيث صار مرجعهم في كل الأمور، فإذا دهمهم أمر فزعوا إليه وعرضوه عليه وانتظروا رأيه فيه واستمعوا لما يقوله ويبديه، فإن أمرهم بأمر امتثلوه أو نهاهم عنه اجتنبوه فإذا أراد أحد من الحكام أو غيرهم التعرض لأدنى شخص منهم من غير وجه وأعلموه بذلك وأمرهم فيه بأمر بادروا جميعاً إليه وربما ضربوه وأخرجوه من بينهم.

"فكان الأمرا بمصر يكمنون الحقد على أهل الثغر وعليه ويتوقعون فرصة ينالون بها أغراضهم ويفرقون ألفة قلوبهم، إلى أن ظهر السيد محمد المذكور واتصل بصالح بيك ومراد بيك وحواشيهم وتقرب إليهم ورفعوا شأنه على أقرانه وقلدوه أمر

الديوان والجمارك بالثغر فعَلا شانه ونفذت كلمته وتصدر لغالب الأمور وزاد في المكوسات وتحيل في المصادرات خصوصاً مع تجار الفرنج فإنه تصدر لهم بالزيادة في مكوسات بضايعهم وبعد أن يقبض ما يقرره يراسل مراد بيك ويخبره بما حضر لهم من الجوخ وغيره ويعلمه بمكانه وأنه واصل إلى مصر بالمركب الفلانية فيرسل مراد بيك من يرصده حين حضوره فيأخذ ما أحب من المركب أو من المخازن بثمن في الدفتر لا يدفعه، واقتدى بفعله أمراؤه أيضاً ".

ومن ثم فإن محمد كريم هو أحد المسئولين عن الكارثة التي تحيق بمصر:

"هذه الأمور كانت من أعظم الأسباب في حركة الفرنسيس التي عمت وطمت".

والجبرتي هو نفسه من العلماء. ومن ثم فإنه متضامن مع زملائه السكندريين. والحال أن محمد كريم مسئول عن مصرع واحد من أبرز رجال الدين السكندريين، هو نقيب أشراف المدينة، أي نقيب أحفاد النبي، وهو منصب جد مهم في العصر العثماني. وقد وقع الحادث بعد عودة من حج باذخ إلى مكة قام به محمد كريم:

"رجع إلى بلده سكندرية، فلما استقرت قدمه بها أخذ في تحصيل جانب من المال ليرسله لمراد بيك. فأول ما بدأ به أنه أحضر السيد أحمد أبوشهبه نقيب الأشراف ووكيله على الديوان فحاسبه على ما تأداه وصرفه فتأخر جهته قدر من الدراهم بسبب أن السيد أحمد المذكور كان يلاطف الناس ويعاملهم بالرفق في الجمارك والمكوسات (...).

"وزاد بينهما التشاجر والتفاقم وانتصر له الشيخ المسيري الذي إليه مرجع عامة أهل الثغر وافترق الناس فرقتين وثلاثة، فرقة مع السيد محمد كريم والأخرى مع المسيري وأبوشهبة (...) وفرقة

متنحية عن الفئتين خوف العاقبة ولكن المعظم مع السيد محمد. فأرسل إلى مخدومه يشكو من أهل الثغر ويستدعيه في إرسال كاشف[٤] يشتد به عضده ويقوى ساعده، وتوسطت بينهما الناس وصالحوهم، فلم يمكن السيد محمد تدارك المنع في طلبته. وفي أثر ذلك أرسل مراد بيك حسن أغا خازن داره سابقاً وكان متحيلاً فدخل إلى الثغر، وعلم أبوشهبه أنه أول مطلوب فاشتد خوفه وضاق خناقه فاختفى وطُلب فلم يوجد ثم ظهر بعد أيام ميتاً في صهريج داره، فاحتاطوا بموجوده وراجعوا بالحساب فيما نقصه أبوشهبه أو سامح فيه واستخلصوه من أربابه".

وبشكل معين، فإن المحن التي تصيب المدينة آنذاك هي نتيجة هذا الانتهاك للنظام الإسلامي:

"وفشي الطاعون بالثغر وكثر إلى أن مات به حسن أغا المعين المذكور. وتداولت الأيام وحضر جماعة الفرنج وملكوا الثغر".

ولن يكتشف الفرنسيون إلاّ تدريجياً جداً هذا الانقسام السياسي للمجتمع السكندري. وسوف يؤدي تغلغلهم إلى تحوير قواعد اللعبة واستئناف النزاع بإعطاء العلماء هامش مناورة أوسع. وتتجلى هذه الظاهرة نفسها في عموم مصر.

ومحمد كريم هو منظم المقاومة ضد الفرنسيين. وبسبب ريبته، فإنه يرفض في شهر يونيو المساعدة التي يقترحها عليه نيلسون الذي يبحث عن الأسطول الفرنسي. لكنه الآن يناشد البدو ومماليك الناحية. وهو لا يملك شيئاً في مواجهة نزول الفرنسيين" كالجراد المنتشر حول البلد".[٥]

ومن الواضح أن الفرنسيين يتمتعون بتفوق عددي أكثر من ساحق. وقواتهم حنكتها أعوام المعارك في أوروبا. ومحمد كريم هو آخر من يستسلم في أول يوليو ١٧٩٨.

ويتمنى بونابرت أن يجعل من الإسكندرية مختبراً لسياسته

المصرية: كسب العلماء ووضعهم في مواجهة المماليك. ومن ثم فإنه يسعى إلى الفوز بمساندة العلماء الذين يستعيدون دورهم الطبيعي كوسيط بين السلطة العسكرية والشعب ويوقعون في ٤ مايو ١٧٩٨ إعلاناً يحدد قواعد التعايش مع الفرنسيين:

"هذا هو الاتفاق الذي تم بيننا، نحن أعيان مدينة الإسكندرية، الذين ترد أسماؤهم أدنى هذه الوثيقة، وبين قائد الأمة الفرنسية، القائد العام للجيش المعسكر في المدينة.

"إن الأعيان المذكورين سوف يواصلون مراعاة شريعتهم ومؤسساتهم الدينية؛ وسوف يقضون في المنازعات بحسب العدالة الأكثر نزاهة وسوف ينأون بأنفسهم حريصين عن طريق الظلم المعوج...

"وسوف يهتم الشيوخ المذكورون بالأسباب الكفيلة بتأمين هيمنة العدالة وسوف يوجهون كل جهودهم صوب هذه الغاية وحدها، إذ لا تحركهم غير روح واحدة... وسوف يعملون بحماسة من أجل خير البلد وسعادة السكان ودمار الأشرار والمجرمين. كما يتعهدون بأن لا يخونوا أبداً الجيش الفرنسي وبأن لا يسعوا أبداً إلى إزعاجه، وبأن لا يعملوا أبداً ضد مصالحه وبأن لا يندرجوا في أية مؤامرة قد تنشأ ضده.

"ومن جهته، وعدهم القائد العام للجيش الفرنسي بأن يحول دون قيام أي واحد من جنود جيشه بإزعاج سكان الإسكندرية بالمضايقات وبالاغتصابات وبالتهديدات وبأن من يقترف مثل هذه التجاوزات سوف يعاقب أقسى عقاب.

"كما وعد القائد العام على نحو مشهود بأن لا يجبر أي واحد من السكان على تغيير دينه وبأن لا يُدخل أبداً أية بدعة في الممارسات الدينية؛ فنيته، خلافاً لذلك، هي أن يبقى جميع السكان على ديانتهم، وأن يكفل لهم راحتهم

وممتلكاتهم، بجميع ما لديه من وسائل، ماداموا لا يسعون بالمرة إلى إزعاجه أو إزعاج الجيش الذي يقوده"[٦].

وفي اليوم التالي، يجرى الانخراط في محاولة تمرد من جانب البدو. ويجيء زعماؤهم من تلقاء أنفسهم ومعهم أربعين أسيراً. ووفقاً لشهادة لوجييه:

"استقبلهم القائد العام ببالغ الحفاوة، وقدم لهم هدايا، ومتعهم بموسيقاه. وقد أظهروا قدراً من الرهافة في كلامهم، فقالوا: "لقد قلتم لنا إنكم إنما جئتم من أجل صالحنا وإنكم لا تحاربون غير المماليك، ظالمينا، لكنكم هبطتم سراً وزحفتم بأسلحتكم علينا، ولم نكن ندري أنكم فرنسيون ولم يكن بوسعنا أن نتصور إلاً أنكم روس، أعداء صديقنا السلطان". وهذا التبرير حاذق بأكثر مما هو صادق. إلاً أنه جرى التعامل معهم؛ على أن هؤلاء الرسل، لدى انسحابهم، قد اصطدموا بقوات أعتقد أنها من فرقة بون التي لم يجر إخطارها بالاتفاق، وهو أمر عجيب، وكان بوسعهم أن يبرزوا واثقين الورقة التي حصلوا عليها من القائد العام بما يسمح لهم بسلامة المرور، إلاً أن أحداً لم يمهلهم وجرى إطلاق النار عليهم. وقد لقى أربعة من بينهم مصرعهم. ومهما كان ما جرى عمله لإصلاح هذا الالتباس المحزن، فلم يكن بوسع شيء أن يعيدهم إلى صفنا. ولم يتوقفوا عن اعتبارنا أكثر الناس خداعاً ولم يكن العرب أقل حماسة في إزعاجنا"[٧].

ومن ثم يسعى بونابرت إلى الاعتماد على العلماء، إلاً أنه يشوش الموقف دون قصد إذ يقدم في الوقت نفسه عروضاً لمحمد كريم الذي يقبلها. وفي ٧ يوليو ١٧٩٨، يحدد قرار صادر من بونابرت مهام الشريف:

"إن القائد العام، وقد ارتاح كل الارتياح إلى المسلك الذي التزم به السيد محمد كريم منذ وصول الجيش الفرنسي، يعينه في

موقع محافظ دائرة الإسكندرية. وسوف ينقل إليه أوامره عن طريق الجنرال كليبر، الذي يقود كل الدائرة، وهو إجراء لا يمنعه من مكاتبة القائد العام كلما شاء ذلك.

"وسوف يلجأ إليه الجنرال كليبر في كل الحاجات التي يمكنه تدبيرها لخدمة الجيش الفرنسي وحماية الدائرة من العرب"[٨].

ومن ثم فإن التعارض ينشأ من جديد بين الجماعتين السياسيتين السكندريتين. وينكب محمد كريم فوراً على تنظيم المقاومة ضد الفرنسيين مع لعبه من الناحية الظاهرية بورقة التعاون معهم. أما فيما يتعلق بالعلماء، فإنهم يلتزمون موقف الترقب والانتظار.

ويترك بونابرت لكليبر قوات مهمة: نصف اللواء التاسع والستين وقوامه ١٨٠٠ رجل وبعض وحدات المدفعية والهندسة ومستودعات الجيش، والمالطيين الذين جرى تجنيدهم بالقوة عند الاستيلاء على جزيرة مالطة والذين تعين تنظيمهم في فيلق خاص. ويصل العدد الإجمالي إلى ستة آلاف وخمسمائة رجل ثلثهم من المقاتلين[٩]. ويتجاوز عدد الفرنسيين عدد السكندريين. وتدريجياً، اعتباراً من أغسطس ١٧٩٨، تفرغ المستودعات مع استقرار الفرنسيين في عموم مصر السفلى، لكن البحارة الهاربين من معركة أبوقير إنما يحلون محل المغادرين. ومن ثم تصبح الأعباء جسيمة، إذ يتعين ضمان المواد الغذائية بممارسة ضغط علي مؤخرة البلد، بينما يحول الإنجليز دون الاتصالات البحرية ولا تتمتع الإسكندرية بموارد مناسبة في هذا المجال.

واعتباراً من ٦ يوليو، يبدأ الجانب الرئيسي من الجيش زحفه الشاق إلى القاهرة وسرعان مالا يحصل كليبر بعدُ على معلومات حول تطور الأحداث. ويستفيد محمد كريم من هذا الانعدام لليقين لكي يعد لانتفاضة عامة ضد الفرنسيين. وسرعان ما يستشعر هؤلاء الأخيرون في

تزايد الحوادث، المترتبة جزئياً على سوء سلوك الجنود، إرادة تنظيمية.

ولا تدوم فترة التوتر هذه غير أسبوعين. والحال أن كليبر، المرتاب، إنما يأمر بإلقاء القبض على الشريف ويرسله إلى القاهرة حيث يتم إعدامه. وتجب الإشارة إلى أن بونابرت قد تلقى من جهته وشايات ضد محمد كريم.

ويتصرف سكان الإسكندرية كأية جماعة سكانية تحت الاحتلال كما يوضح ذلك كليبر في رسالته إلى بونابرت بتاريخ ١٩ يوليو:

"إن هؤلاء الناس يعتبرون كل إمارات المودة التي أبديها لهم دليلاً على الضعف، بينما هم هنا، من جهة أخرى، بالرغم من قلة ما أبديه لهم، لا أقول من الصرامة ولكن من الحزم، يتصاغرون أمامي. وسوف يتصاغرون أكثر عندما يعلمون، أيها الجنرال، أنك قد دخلت القاهرة، وإلى أن يحدث ذلك، ومادامو‌ا يتقلبون بين الخوف والأمل، فإنني لا أقيم وزناً يذكر لحلفاناهم"(١٠).

أمّا فيما يتعلق بالأعيان من فريق العلماء، وعلى رأسهم الشيخ المسيري، فإنهم يحصلون على المهام التي أعطيت من قبل للشريف ومن الواضح أنهم يختارون ورقة التعاون، أو بالأحرى، وفقاً لمنطق دورهم، ورقة الوساطة. وهم يرفضون مواصلة المقاومة النشيطة التي يستأنفها زميل قديم لمحمد كريم، وهو تاجر من أصل مغربي، اسمه عبدالله باشي.

ويبدو أن الموقف ينجلي للفرنسيين مع وصول نبأ معركة الأهرام ودخول بونابرت القاهرة. وإذا ماصدقنا كليبر، فإن الاحتفال بالانتصار في الإسكندرية يتم بمشاركة الأعيان (٣١ يوليو ١٧٩٨):

"تلقيت زيارة من البعثات الديبلوماسية ومن التجار من جميع الأمم وكذلك من أعيان المدينة المسلمين؛ وقد أبدى الجميع ولاءهم

وإخلاصهم للجمهورية الفرنسية. وقد أجبتهم بأنني ما كنت لأسعد فعلاً بهذا الانتصار لو لم أكن على قناعة عميقة بأن من شأنه أن يسهم بشكل فعالٍ في هناء وخير الجميع. وقالوا لي إنهم على ثقة من ذلك هم أيضاً. وخلال الليل، جرت إضاءة وفتح الأسواق والدكاكين وجميع الدور. وقد مكث الزعماء المسلمون في قاعة رحبة دخلها الفرنسيون والأتراك على حد سواء. وقد بقيتُ هناك قليلاً ورأيت توزيع المرطبات هناك بشكل واسع ودون مقابل على من يريد تناولها. وشوهدت هناك بعض زوجات الضباط والتجار الإفرنج اللاتي ظهرن، لأول مرة في حياتهن، في هذا المكان. وبوجه عام، فقد بدأ الحبور وبدا غير مصطنع"[١١].

إلاً أنه في اليوم التالي مباشرة، تبدأ معركة أبو قير البحرية. وتسمع أصداؤها المدوية في الإسكندرية نفسها. وتؤدي الهزيمة الفرنسية إلى تبديل الوضع بالكامل. فالبحارة الهاربون أو الذين أطلق الإنجليز سراحهم يتدفقون على الإسكندرية ويمكن الخوف من هجوم إنجليزي على الثغر. وفي أواسط أغسطس، يبدو أن الخطر يتجسد، ثم يأخذ التهديد الإنجليزي في التضاؤل. ويستفيد كليبر من ذلك لكي يطبق نموذج التنظيم السياسي الذي أعده بونابرت. ويبدو أن العلماء يهتمون بالأمر ويرفضون المقترحات الأنجلو – تركية والخاصة بالإعداد لانتفاضة، بل إن الأمر يصل بهم إلى حد كشف هذه المقترحات لكليبر.

وما ذلك إلاً لأنهم منزعجون من تحرك عبد الله باشي الذي يمثل تهديداً قاتلاً للمدينة. فهذه الأخيرة تعتمد اعتماداً كاملاً في تزويدها بالمياه على الخليج الذي يربطها بالنيل. وفي ذلك العصر، لا يصل الماء إلى الإسكندرية إلاً خلال فيضان النيل، ويتم جمعه في خزانات. ولن يصبح جريان الماء دائماً إلاً في عهد محمد علي، وذلك بفضل حفر ترعة المحمودية، وهو الأمر الذي سوف يسمح

بنهوض المدينة. وبما أن شهر أغسطس هو الشهر الذي يسبق الفيضان، فإن الاحتياطات كانت أكثر انخفاضاً وذلك بقدر ما أن عدد السكان قد تضاعف على الأقل مع الاحتلال. وعلاوة على ذلك فإن الجنود قد أهدروا الأجهزة الهيدروليكية.

والحال أن ائتلاف بدو أولاد علي والمماليك وفلاحي إقليم دمنهور، والذي يحركه عبد الله باشي، إنما يهدد بأن يقطع بالكامل وصول المياه ومن ثم جعل المدينة غير قابلة للسكني بالنسبة للفرنسيين ولسكانها على حد سواء.

ولا يدرك كليبر الخطر فعلاً إلاّ في النصف الثاني من أغسطس. أما أعيان الإسكندرية، خصوصاً الشيخ المسيري، فإنهم يستخدمون شبكة نفوذهم الخاصة في الأرياف لكي يسمحوا بالتعاون الضروري بين الفرنسيين والمصريين لأجل وصول المياه. والرجل الذي يقع عليه الاختيار هو أحد أعيان دمنهور، وهو الأمير إبراهيم، الذي يعد بتأمين تهدئة الإقليم ويقدم رهائن. وأمام ضغط المقاومة المضادة للفرنسيين، فإنه يطلب في البداية عون الفرنسيين العسكري (١٢ سبتمبر ١٧٩٨) والذي يطلبه أيضاً ديوان الإسكندرية. ويتصرف كليبر آنذاك عبر سياسة إرهاب، تتميز على نحو خاص بتدمير قرية بركة غيطاس وذبح جزء من سكانها. وهذا لا يحول دون تخلي الأمير إبراهيم في عين اللحظة التي يترك فيها كليبر قيادته (١٩ سبتمبر ١٧٩٨).

وعبر هذا الحادث، تتكشف بشكل مشوش شبكة ثلاثية من العلاقات تربط بين المدينة (الإسكندرية) والريف (دمنهور) والصحراء (أولاد علي). وواقع أن وصول المياه قبل وصول الفرنسيين لم يكن يتم بالفعل إلاّ بالقوة إنما يشير على الأرجح إلى تعارض بين المدينة والريف.

والعنصر المثير للاهتمام هو أن الائتلاف المعادي للفرنسيين

إنما يحركه شخص مغربي الأصل. والحـــال أنـــه في الســـنة التاليـــة، وفي الإقليم نفسه، سوف تحدث انتفاضة ذات مصـــدر إلهـــام ديـــني وألفـــي يلهمها مهدي، هو أيضا من أصــــل مغـــربي. ودون أن تكـــون لدينـــا براهين، فإن بوسعنا افتراض أن التمرد الأول إنمـــا يشـــترك مـــع هـــذه الانتفاضة في مصدر إلهامـــها.

والواقع أن انحدار السلطة المركزيـــة في مصـــر في القـــرن الثـــامن عشر إنما يزيد من مراكز السلطة المستقلة والتي تربـــط بينـــها علاقـــات معقدة. ومن ثم فسوف تكون المقاومة للفرنسيين فعالـــــة بقـــدر مـــا لا يتوصل هؤلاء الأخيرون إلى العثـــور علـــى مركـــز واحـــد وحيـــد في مصر. ومن ثم فسوف تظل المقاومة دائمـــة خـــلال ســـنوات الحملـــة الثلاث. لكن تعدد المراكز إنما يحول دون نشوب أيـــة انتفاضـــة عامـــة من جانب مصر وســـوف يســـمح للمحتلـــين بـــالتوصل إلى تهدئـــات جزئية مع مراكـــز الســـلطة المختلفـــة. وعـــدم التجـــانس السياســـي والاجتماعي لمصر في ذلك الزمن يسمح بفـــهم أن كـــل عنصـــر إنمـــا يلعب لعبته السياسية الخاصة تجـــاه الفرنســـيين كمـــا تجـــاه العنـــاصر الأخرى. وقد وجد كليبر نفسه في قيادتـــه للإســـكندرية ونواحيـــها في مواجهة هذا الواقع الذي لا يفهمـــــه بـــالفعل والـــذي يماثلـــه بمنطـــق حروب الثورة في أوروبا (الرسالة التحريرية لـــ"الأمـــــة العظمـــى").

وهذه القيادة لم يردها كليبر: فهي نـــوع المـــهام الـــذي رفضـــه دائماً. وقد زعم دائماً أنه لم يخلق للإدارة. وليـــس مـــن شـــأن العزلـــة التي يجد نفسه فيها إلاّ أن تزيد من ثقـــل مســـئوليته.

وهو، في العلاقات مع المصريين، يشدد علـــى ضـــرورة مراعـــاة مزاج السكان [١٢] والحرص على مراعـــاة قواعـــد حيـــاتهم، والتعـــامل معهم بمراعاة [١٣]. ويجب: "أن نثبت لهم بشـــكل مـــتزايد علـــى مـــدار جميع الأيام أننا لم نأت إلاّ بنوايا ســـلمية" [١٤] حـــتى "لا يكـــون مجـــيء الفرنسيين سبب معاناة خاصـــة" [١٥].

ويصدق كليبر بإخلاص برنامج الحملة التحريري. فمصر بالنسبة له هي ساحة معركة ضد إنجلترا وأرض يجب تحريرها وموضوع دراسة علمية ومن الواضح أيضاً أنها فرصة للفوز بالمجد. والخلاصة أن المسألة هي مسألة اجتراح "مآثر عظمى" فيها.[١٦]

وطموح الاستعمار والفتح لا وجود لديه بالمرة. وهو في ذلك أيضاً نقيض بونابرت. فهو الرجل الذي كتب إلى حكومة الإدارة في ٢٨ سبتمبر ١٧٩٦:

"بوصفي جندياً للثورة، فإنني لم أحمل السلاح إلاّ للفوز بالحرية ولإبعاد أعدائنا عن الحدود. ومع كسب الحرية وإبعاد العدو عن حدودنا وارتياح الوطن، فإنني لم أتعاقد إلاّ معه. إنني لا أريد أن أكون ولن أكون أبداً الأداة السلبية بيد أي نظام فتح"[١٧]

وكل معارضته لمينو، نصير جعل مصر مستعمرة، سوف تنبع من هذا الموقف المبدئي.

لكن كليبر لا يتردد في التصرف بقسوة من أجل تطبيق سياسته. فالمصريون يجيئون بعد راحة وأمن جنوده (إلاّ أن بوسعه أن يكون قمعياً جداً تجاه هؤلاء الأخيرين حيث يصل به الأمر إلى حد تطبيق أحكام بإعدام عدد منهم سعياً إلى استعادة الانضباط).

وعبء الإدارة شديد الإرهاق له خاصة وأنه مصحوب بأزمة مالية دائمة تحول دون أي تحسين ملموس لحالة الجندي كما تحول دون أي وفاق حقيقي مع المصريين.

وكما حدث في ألمانيا، فإنه يبرز عجز إدارة الجيش كما يبرز واقع صلاحيات بونابرت في مجال الإمدادات.

ولا يسع هذا الأخير إلاّ أن يطلب إليه زيادة المصادرات والضرائب القسرية، وهو أمر ينفر منه لأن وضع الإسكندرية هو من الحرج بحيث إن "كل شيء يجب أن يدار هنا من الخارج عبر الثقة وعبر جاذبية الكسب، ويجب ولا مفر من سداد ثمن كل شيء

نقداً وفوراً" [١٨]. ومن ثم فمن "سوء السياسة البالغ التحدث عن الاستدانة أو عن المصادرة"[١٩].

ثم إن تدفق البحارة بعد أبوقير إنما يزيد من تفاقم الوضع. والحال أن كليبر لا يكن احتراماً كبيراً للبحارة: "إنهم رجال معتادون على العيش في الفوضى ويألفون جميع الرذائل"[٢٠]

ورأيه في البحرية لا يتزحزح:

"إنني لأشعر بالأسف للهزيلين وللأشباح الذين يستخدمونهم فيها. لقد قال لي البائس كازابيانكا مرة وهو يتأوه وكما لو كان يستشعر ما سوف يحدث له: "إن بحريتنا هي جثة وبيئة" [٢١] والحال أنها أسوأ من ذلك بكثير"[٢٢]. ونتيجة لكل ذلك، فإن: "إدارياً جمهورياً طيباً لابد له، بضربة ساحر، أن يخرج من باطن الأرض كل ما يحتاج إليه ولابد له من أن يكون موسى آخر في الصحراء"[٢٣] و"من بين جميع أساليب الإدارة، فإن أكثرها شراً هو الأسلوب الذي يأمرونك عبره بانفاقات دون أن يوضحوا لك البتة من أين وكيف يمكن تدبير ما يلزم للوفاء بها"[٢٤]. كما أنه، منذ البداية، يعتبر "الإسكندرية منفى" [٢٥]. وهو يطلب من بونابرت في مناسبات عديدة السماح له بالانضمام إلى فرقته حيث "إنني أرى أن مسلكي يتناقض كثيراً مع أوامرك، ويتعارض كثيراً مع نظام الإدارة الذي يبدو أنه قد جرى اعتماده إلى حد أنني لست واثقاً من أنني سوف أتمكن من إرضائك"[٢٦].

والحال أنه بسبب مشكلة الاعتمادات المخصصة للبحرية، والتي استخدمها كليبر في أبواب أخرى، تنشب الأزمة الأولى في علاقاته مع بونابرت. وعلى توبيخات هذا الأخير، يرد كليبر غاضباً:

"لقد نسيت، أيها المواطن الجنرال، وأنت تكتب تلك الرسالة، أنك تمسك بإزميل التاريخ وأنك تكتب إلى كليبر، على

أنني لا أظن أنك قد راودتك أدنى فكرة غير الفكرة التي أعربت عنها، وإلاَّ فإن المرء لن يصدقك"[٢٧].

وبالرغم من كلمات القائد العام التي تهدف إلى تهدئة خاطر كليبر، فإن هذا الأخير، متذرعاً بحالته الصحية، يطلب إعفاءه من قيادته والسماح له بالعودة إلى فرنسا. وهكذا يستعيد مواقفه خلال حملة ألمانيا، بما يعد علامة على أن الأزمة الشخصية كانت قد أصبحت حادة بالفعل. وكان لابد من تدخل نشيط من جانب كافاريللي لمصالحته مع بونابرت.

وعندما يستقر كليبر في القاهرة، فإنه يكتب عندئذ النسخة النهائية من مذكراته عن الفانديه[٢٨] مستفيداً من شهادات قدامى تلك الحرب الأهلية الموجودين في مصر. ولابد أن غالبية يومياته الشخصية وملاحظاته حول عاصمة مصر إنما ترجع إلى ذلك الوقت. وخلال رحلة بونابرت إلى السويس، يحصل على قيادة القاهرة، ثم يستعيد قيادة فرقته لأجل الحملة على الشام.

حواشي الفصل الثالث

١- حول الإسكندرية في ذلك العصر، انظر محمد عبدالحميد الحناوي، **الاسكندرية في عهد الحملة الفرنسية**، أطروحة عملية، جامعة المنيا، ١٩٨٥.

٢- حول سيرة محمد كريم، انظر الجبرتي "وفيات سنة ١٢١٣" وخاصة التفاصيل الأطول التي نقدم هنا مقتطفات منها، والواردة في **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر** الذي حققه وترجمه ش.موريه تحت عنوان **أخبار الجبرتي حول الأشهر السبعة الأولى للاحتلال الفرنسي لمصر**، ليدن، ١٩٧٥، ص ص ٤١-٤٣ من النص العربي وص ص ٦٨-٧٠ من الترجمة الانجليزية. وهذا النص شبه معاصر للأحداث ويقدم رد فعل المؤرخ المصري العظيم المباشر. ومن المثير للانتباه أن الجبرتي لا يتحدث إلاّ في عدة جمل جد غامضة عن الوضع السياسي للاسكندرية في كتاب **"عجائب الآثار"** بينما يسهب في الحديث عنه بشكل مفرط في **المدة**. وبوسعنا أن نتساءل، استناداً إلى هذا المثال، ما إذا كانت قلة الاهتمام مقصودة أم أنها ترجع، كما هو شائع، إلى نقص المعلومات.

٣- **رومي** في النص العربي، ويترجمها موريه بيوناني، لكن الرومي يمكن أن يكون شخصاً عثمانياً منحدراً من الأناضول أو من البلقان.

٤- مملوك من رتبة أدنى مباشرة من رتبة البيك.

٥- الجبرتي: **يوميات أحد أعيان القاهرة خلال الحملة الفرنسية**، ترجمة جوزيف كوك، باريس، ١٩٧٩، ص٢٣.

٦- لاجونكيير، المجلد ٢، ص ص ٦٥ – ٦٦ "هذا الاتفاق المحرر صباح الاربعاء ٢٠ محرم سنة ١٢١٣ للهجرة يحمل التوقيعات التالية: الفقير ابراهيم البرجي الحنفي، غفرالله له؛ الفقير سليمان عبيد، مفتي المذهب الحنفي، غفرالله له؛ الفقير محمد المسيري، الفقير أحمد عبدالله، مؤذن مسجد قرية إدكو، الشافعي المذهب؛ المحتاج إلى مولاه، سليمان الكلاف؛

السـ..الخ، حسن عبيد، الشافعي المذهب؛ المحتاج إلى مـولاه، الملـك العـادل، خادمه عباس العويضي، غفر الله له؛ الـ...الخ، مصطفـى محمـد".

وكلهم من رجال الديـن.

٧- المصدر السابق، ص٦٦، بحسب اسـتخدام العصـر، تعـني كلمـة "عـربي" "بـدوي".

٨- **المصدر السـابق**، المجلـد٢، ص ص١٠١ - ١٠٢.

٩- **المصدر السابق**، المجلـد ٢، ص٧٥.

١٠- رسالة من كليبر إلى بونابرت، بتـاريخ ١٩ يوليـو ١٧٩٨.

١١- رسالة من كليبر إلى بونابرت، بتـاريخ ٣١ يوليـو١٧٩٨.

١٢- رسالة إلى بروي، بتاريخ ٢٣ ميسيدور من العـام السـادس (١١ يوليـو ١٧٩٨). رسالة إلى مينو، بتـاريخ ١٤ ثـيرميدور مـن العـام السـادس (١ أغسـطس ١٧٩٨).

١٣- رسالة إلى اللجنة الادارية للاسـكندرية، بتـاريخ ٢٨ ثـيرميدور مـن العام السادس (١٥ أغسـطس ١٧٩٨).

١٤- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ١ثيرميدور من العـام السـادس (١٩يوليـو ١٧٩٨).

١٥- رسالة إلى لجنة تموين الإسكندرية، بتـاريخ ٢٤ ميسـيدور مـن العـام السادس (١٢ يوليـو ١٧٩٨).

١٦- رسالة إلى بونابرت بتـاريخ ٢٩ ميسـيدور مـن العـام السـادس (١٧ يوليو ١٧٩٨)، ورسالة أخـرى إليـه بتـاريخ ٩ فروكتيـدور مـن العـام السادس (٢٦ أغسـطس ١٧٩٨).

١٧- أوردها جـاك جودشـو، دون إحالـة إلى مرجـع، في كتابـه، **الأمـة العظمى**، الطبعة الثانيـة، بـاريس، ١٩٨٣، ص١٢٨.

١٨- رسـالة إلى مينـو، بتـاريخ ١٤ ثـيرميدور مـن العـام السـادس (١ أغسـطس ١٧٩٨).

١٩- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ١١ فروكتيـدور مـن العـام السـادس (٢٨

أغسطس ١٧٩٨).

٢٠- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ٣ فروكتيدور من العام السادس (٢٠ أغسطس ١٧٩٨).

٢١- أو "موبوءة"، انظر الرسالة إلى مينو، بتاريخ ٢٨ ثيرميدور من العام السادس (١٥ أغسطس ١٧٩٨).

٢٢- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ٩ فروكتيدور من العام السادس (٢٦ أغسطس ١٧٩٨).

٢٣- رسالة إلى مينو، بتاريخ ٢٦ ميسيدور من العام السادس (١٤ يوليو ١٧٩٨).

٢٤- رسالة إلى مينو، بتاريخ ١٤ ثيروميدور من العام السادس (١ أغسطس ١٧٩٨).

٢٥- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ٢٤ ميسيدور من العام السادس (١٢ يوليو ١٧٩٨).

٢٦- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ١٧ فروكتيدور من العام السادس (٣ سبتمبر ١٧٩٨).

٢٧- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ٢١ فروكتيدور من العام السادس (٧ سبتمبر ١٧٩٨).

٢٨- نشرها باجينييه – ديزورمو (هـ)، **كليبر في الفانديه (١٧٩٣–١٧٩٤)**. وثائق نشرتها جمعية التاريخ المعاصر، باريس، ١٩٠٧.

الفصل الرابع

حملة الشام

ليس هدف حملة الشام، أو بالأحرى فلسطين، السماح بفتح طريق بري من أجل عودة تالية إلى أوروبا كما يتصور جنود بونابرت[1]، ولا تدشين زحف بطولي على الهند كما يزعم نابوليون في سانت هيلانة في تذكره الجامح لحملة مصر، بل الهدف هو إزالة الأخطار المباشرة المحدقة بالاحتلال الفرنسي لمصر وتحييد الدولة العثمانية.

بعد معركة الأهرام، يلجأ إبراهيم بك ومماليك حزبه إلى الشام ويعد الباب العالي هناك لحملة استرداد بمساعدة إنجلترا بينما يحتشد جيش عثماني آخر في رودس استعداداً لإنزال في مصر. ثم إن موانئ الساحل السوري – الفلسطيني توفر مراسي قريبة من مصر للأسطول الإنجليزي الذي يفرض الحصار على السواحل المصرية.

وإلى الرغبة في إزالة هذه التهديدات تضاف، بالنسبة لبونابرت، الرغبة في إرغام الباب العالي على الانسحاب من النزاع والاعتراف بالوجود الفرنسي في مصر، وذلك بإشعال نار انتفاضة واسعة معادية للعثمانيين في الولايات العربية للإمبراطورية.

والحال أن سوريا – فلسطين، شأنها في ذلك شأن الممتلكات العثمانية الأخرى، إنما تشهد في القرن الثامن عشر استقلالية عظيمة عن السلطة المركزية في اسطنبول. ويكمن الأساس الاقتصادي لهذه الظاهرة في الالتزامات الضريبية الواسعة (**المقاطعات**) التي تجمع

وتوحد الضرائب العقارية لعشرات من القرى وكذلك الضرائب غير المباشرة والمباشرة المختلفة المفروضة على سكان المدن. ويتولى زمام **المقاطعات** أعيان محليون يستندون إلى تضامنات عائلية واسعة أو موظفون كبار منحدرون من أقاليم أخرى من أقاليم الإمبراطورية (خاصة البلقان) ويحافظون على مواقعهم بالاعتماد على جيوش خاصة حقيقية.

والاتجاه العام في النصف الثاني من القرن إنما يتمثل في تجميع هذه الالتزامات في أيدي عدة أشخاص، بما يخلق مراكز سلطة حقيقية. بل وأشباه دول لا تقوم، بالرغم من اعترافها بسلطة الباب العالي الصورية، بدفع المبالغ الواجبة الأداء للسلطة المركزية إلاّ بشكل جزئي، ومع كثير من التأخر.

وهكذا تتشكل عبر القرن، في الجليل، من بحيرة طبرية إلى عكا، قوة ضاهر العمر الزيداني الذي يراكم لحسابه ولحساب عائلته **مقاطعات** الإقليم. وبفضل مهارته العقارية، ينمي زراعة محصول القطن من أجل تصديره إلى أوروبا ويصبح شريك وصديق التجار الفرنسيين المهيمنين في تجارة شرقي البحر المتوسط. كما أنه يتحالف مع سادة الجبل اللبناني والمتاولة (شيعة جنوب لبنان فيما بعد) والدروز والموارنة الذين يوجهون الجبل على أسس مماثلة.

وفي سبعينيات القرن الثامن عشر، يتمرد على السلطة المركزية بالتعاون مع الزعيم المملوكي المصري البارز علي بك الكبير الذي يحاول أن يُنشيء لحسابه إمبراطورية شامية - مصرية بمساعدة روسيا (١٧٧٢ ــ ١٧٧٤). وتفشل المحاولة بسبب الشقاقات الداخلية بين المماليك وإن كان الرأي العام الأوروبي يفسرها بأنها رغبة في إحراز استقلال مصري وخلق دولة عربية. والحال أن ضاهر، البدوي الأصل، إنما يصوره كتاب مثل فولني أو سافاري في صورة المدافع عن نهضة عربية في مواجهة الأتراك الجائرين. واسمه

معروف جيداً لقراء الصحف الأوروبية[٢]. ومن ثم فـإن المسـئولين عـن الحملة سوف يتصورون أنهم يذهبون إلى سـاحة معروفـة.

وعندئذ يحرك الباب العالي ضد ضاهر خصماً قويـاً، هـو أحمـد باشا الجزار، وهو مملوك من أصل بوسنوي. فمـع تعيينـه واليـاً علـى ولاية صيدا، يدمر بالكامل قوة آل الزيـداني (١٧٧٦) ويمـد سـيطرته الخاصة على مجمل الجليل، محـولاً **المقاطعـات** السـنوية (**الالتزامـات**) إلى التزامات لمدى الحياة (**ملكانة**) لحسابه هو، ويتعـين علـى حلفـاء ضاهر في الجبل اللبناني أن يعترفوا بهيمنته. وهـو يزيـد دخولـه عـبر ممارسة سياسة احتكار لتجارة الحـاصلات الغذائيـة، محـدداً أسـعارها كيفما شاء على حسـاب التجـار الفرنسـيين. وهـؤلاء الأخـيرون يروجون في أوروبا الأسطورة السوداء التي تصـور الجـزار في صـورة المستبد الدموي غير المستنير بـالمرة.

ولما كان غريباً عن الإقليم، خلافـاً لآل الزيـداني، فإنـه يدعـم قوته بجيش من المرتزقة الذيـن يتـم الإنفـاق عليـهم عـبر تكثيـف استغلال الفلاحين المحليـين.

ويفكر بونابرت في استثارة تمرد معاد للعثمـانيين، مماثل لتمـرد السبعينيات، وذلك بأن يحشد حوله ائتـلاف سـكان الجبـل وأنصـار الزيداني، ومن ثم فإنه يختار حفيداً للزيداني لحكـم الجليـل.

وبسبب حركة تجميع **المقاطعات** وتوجيـه جـزء مـن الإنتـاج الزراعي إلى التصدير إلى السوق الأوروبية، تعـرف فلسـطين النصـف الثاني من القرن الثامن عشر قدراً مـن اسـتعادة الأمـن الداخلـي في مواجهة الغارات البدوية كما تعرف بوجـه خـاص إحيـاء اقتصاديـاً وديموغرافياً (يميل من جهة أخرى إلى التـآكل في أواخـر القـرن مـن جراء فداحة الاستغلال الضريبـي الذي يمارسـه الجـزار). والحـال أن الإحياء المحسوس في الجنوب بالرغم مـن الضغـط البـدوي، والراجـع إلى بُعد سادة عكا، إنما يعد واضحاً بشـكل خـاص في الجليـل مـع

توسيع زراعة محصول القطن والنهوض الملحوظ لعكا، عاصمة ضاهر ثم عاصمة الجزار من بعده. فهذا الموقع المهمل يصبح مدينة مهمة ومحصنة. ومن عكا إلى بحيرة طبريه، تشكل شبكة كثيفة من القري والكفور نواة قوة سيدي فلسطين. ومن ثم فإن هذه الأخيرة بعيدة عن أن تكون فضاء خاوياً وبكراً[٣].

ويفكر بونابرت للحظة في أن يعطي لكليبر قيادة حملة الشام التي كان من شأنها من ثم أن تكون مماثلة لحملة ديزيه في مصر العليا لمطاردة مراد بك، لكنه سرعان ما يقرر قيادتها بنفسه. وينبع هذا القرار من الأهمية السياسية للعملية ومن الهيبة التي تترتب علي ظهور أسماء توراتية في البلاغات بالنسبة للرأي العام الأوروبي، وهو يفكر باستمرار في أثر الدعاية الشخصية.

وعندئذ يستأنف كليبر قيادة فرقته المرابطة في شرقي الدلتا، ومهمته الأولى هي إعداد إمدادات العملية، ثم يتعين عليه أن يشترك مع رينييه وفرقته في عمليات الطليعة في سيناء.

ويتم حشد الجيش في العريش ومنذ ذلك الحين تشكل فرقة كليبر وحدها طليعة الجيش. وسوف تكون تلك هي مهمتها حتى عكا. وخلفها، يستولي بونابرت على المدن الساحلية. وعندئذ يتراجع الجزار، ويترك في ساحة القتال القوات التي أرسلها الباب العالي ومماليك إبراهيم بك ووحدات سلطات محلية كالنابلسيين.

ومن الغريب أن هذه الحملة تكشف عن الكثير من العيوب التي سوف نجدها من جديد، بمقاييس أوسع بكثير، في الحملة علي روسيا في عام ١٨١٢. فالإدارة غير فعالة والذخيرة لا تصل إلا بكميات غير كافية ولا يحيا الجيش إلاّ علي موجودات المستودعات التي تركها الجيش العثماني المنسحب. ويشعر كليبر بالصدمة العميقة تجاه هذا المسلك الذي لا يعدو أن يكون رهاناً أبدياً على الحظ. وهو يرى أنه لا يجوز اللعب هكذا بأرواح الجنود وبمصير الجيش[٤].

وإذا ما صدقنا موران، الذي ينتمـــي إلى أركـــان كليـــبر، فـــإن قائده يبدأ في الاعتراض على مسلك بونابرت منذ دخـــول ســـيناء:

"في ٢٠ بلوفيـــوز (٨ فـــبراير ١٧٩٩)، تلقـــى الجـــنرال كليـــبر رسالة من القائد العام؛ وبعد أن فرغ مـــن الاطـــلاع عليـــها، لم يكـــن هناك شك البتة في الانطباع السيء الذي خلفتـــه عنـــده. وقـــد لـــزم الصمت طويلاً، ثم قطعه فجأة وانفجر غاضبـــاً مـــن ترتيبـــات القـــائد العام السيئة: فلا توجد أية إمدادات لعشرة آلاف رجـــل كـــان عليـــهم اجتياز الصحراء؛ وقد تحسس بشكل حـــاد هـــذا الوضـــع؛ وشـــجب بأعلى صوته الثقة التي يبدو أن القائد العام يضعـــها في القـــدر"(٥).

والجزار ينتظر بونابرت في عكـــا. ويبـــدأ الحصـــار في منتصـــف مارس ١٧٩٩. وتتوقف مراسلات كليبر اعتبـــاراً مـــن هـــذا التـــاريخ، فلابد أن جميع الاتصالات كانت تتم شفاهة. ولـــن يجـــري اســـتئناف المراسلات إلا في ١٠ أبريل ١٧٩٩، عندما يتلقى كليـــبر الأمـــر بدعـــم جونو في الناصرة. ويتوجب عليه تغطية قوة الحصـــار في وجـــه جيـــش الغوث العثماني الذي يحتشد في دمشـــق.

وعلى عكس توقع بونابرت، فإنـــه لا يتمكـــن مـــن الاســـتيلاء على عكا. وينجح الجزار في تنظيم مقاومة ظافرة. وهـــو يحصـــل علـــى مساعدة من الأسطول الإنجليزي الذي يكفـــل لـــه إمداداتـــه ووصـــول التعزيزات. كما يرسل إليه الإنجليز مستشارين عســـكريين، مـــن بينـــهم فيليبو الشهير، زميل الدراسة السابق لبونـــابرت، والمـــهاجر والصديـــق الحميم للعميـــد البحـــري ســـيدني سميـــث الـــذي يقـــود الأســـطول الإنجليزي.

أمَّا الانتفاضة المعادية للعثمانيين فـــهي لـــن تنشـــب إلاَّ إذا نجـــح بونابرت في الاستيلاء على عكا وتدمير قوة الجزار، ومـــن هنـــا ضـــراوة القائد العام في عمليات الهجوم. ويتجسد خطـــر حـــدوث إنـــزال في مصر من جانب الجيش الموجود في رودس بينمـــا تنشـــب القلاقـــل في

إقليم دمنهور. وتصبح مسألة الوقت مسألة حيوية.

وتسمح مراسلات كليبر بتتبع فعل الجنرال الألزاسي في الجليل ومعركة جبل طابور. والرواية التي يقدمها نابوليون عن ذلك الفعل في سانت هيلانة هي رواية جد بعيدة عن رؤية كليبر المباشرة.

ويستمر الحصار ويصبح متزايداً باطراد في طابعه الدموي. ويلقي أصدقاء عديدون لكليبر مثل كافاريللي مصرعهم. وفي ٨ مايو ١٧٩٩، يجري استدعاء كليبر من الجليل مع جزء من فرقته وذلك للمشاركة في الهجوم النهائي على الموقع.

ويرى موران: "إن الفرقة قد استشعرت جيداً عندئذ ما سوف يُطلب منها، وراضية بالصمود لما عجز الآخرون عن الصمود له، تفانت عن طيب خاطر في الصمود للأخطار المترتبة على الهجمات التي تشنها على الموقع. وكان الرماة يجتمعون في الساحة ويجيئون بزجاجات العرق إلى رماة الفرقة لتهنئتهم ولتقديم كل ألوان التشجيع لهم على محاولتهم الأخيرة التي تظل عبثية شأنها في ذلك شأن المحاولات السابقة"(٦).

وفي عكا تنشب الأزمة الثانية في العلاقات بين كليبر وبونابرت. ولتأثره بخسارة أصدقائه، ينتقد الألزاسي القائد العام بحدة وعلانية.

ووفقاً لمارمون، فإن بونابرت، في نفاد صبره، يضغط على الضباط لكي يعلنوا بشكل سابق للأوان أن الثغرة المفتوحة في الأسوار سالكة:

"كان كليبر حاضراً وبدا صمته دليلاً على عدم الرضا عن ذلك. وقد استفزه القائد العام لكي يبدي رأيه على أمل أن يجده في صفه فأجابه كليبر: "لا شك ياجنرالي أن الثغرة سالكة، فبوسع قطة أن تمر منها"(٧).

أمّا بيرنوابيه، الذي تستوجب شهادته الحذر، فهو يقدم الرواية التالية للحدث:

"(بعد وصوله) مباشرة، قام الجنرال بزيارة بونابرت الذي أبلغه بأنه سوف يجري شن هجوم ثالث عشر. وقد اقترح الجنرال كليبر فجأة علي بونابرت أن يخرج لتفقد أعمال الحصار. وقد بدا بونابرت مرتاحاً إلى هذا الاقتراح: فخرج من خيمته برفقة جانب كبير من أركان حربه وعدة ضباط قادة. وتفقدوا جميع الأعمال بتدقيق بالغ. وبعد أن تجولوا في جميع محاور الهجوم والدفاع، قال كليبر لبونابرت، في حضور عدد كبير من المساعدين: "أيها الجنرال، لو لم أكن أرى بنفسي أن بونابرت هو القائد هنا، لتصورت أن كل هذه الأعمال قد أشرف عليها عيال". وقد تظاهر بونابرت بأنه لم ينتبه إلى الصفعة التي وجهها إليه للتو جنرال لا يعرف التملق ورأيه عميق الأثر على معنويات الجيش. فاحتفظ في أعماق روحه بالغيظ الذي أججته في صدره حدة كلام كليبر"[٨].

والحال أن مسلك القائدين المتعارض وامتناع كليبر عن كل مظهر من مظاهر التملق إنما يكمنان في أساس شعبية الأخير العظمى في صفوف الجيش وفي أساس عداوة الأول الشديدة لشخصه، ويرى لاجونكيير أن شهادة مارتان حول هذه المسألة مقنعة[٩]:

"منذ ذلك الحين، بدأت التململات ترتفع في صفوف الجيش؛ ولم يعد هناك إيمان بأن بونابرت معصوم من الخطأ؛ إذ تجري التضحية بالجنرالات وبنخبة الجنود؛ وكان هناك شخص واحد يجتذب جميع الأنظار، هو كليبر: لقد شجب دائماً حملة الشام، ورأى منذ الهجوم الأول أنه لن يتم أبداً الاستيلاء على مدينة عكا. وأسلوبه في القتال، والذي يراعي الجندي، هو انتقاد لأسلوب بونابرت الذي يسميه (كليبر) بجنرال لعشرة آلاف جندي كل أسبوع. والجيش كله يقول بأعلى صوته إنه لو كان كليبر قائداً

عاماً لتم الاستيلاء على عكا منذ وقت بعيد. ذلك هو أصل تلك الكراهية التي كان بونابرت يكنها دائما له ولأصدقائه"[١٠].

وهذه الإدانة لمسلك بونابرت نجدها كذلك في يوميات كليبر:

"إنه يقول إنه يتحمل المسئولية عن جميع الأخطاء التي ارتكبت أمام عكا. لن يكون بوسعه إعفاء نفسه منها".

"لا وجود بالمرة لخطةٍ محددة؛ فكل شيء يتم بالنط وبالقفز؛ واليوم يسوي أمورٍ اليوم. فهو يزعم الإيمان بالقدر".

في عكا، إذاً، يحول الجيش حبه، من القائد العام، الذي يجري اعتباره مسئولاً عن عذاباته ونفيه، إلى شخص كليبر الأكثر إنسانية. وبونابرت يؤاخذه بشدة على هذه الصراحة التي لابد أنه يعتبرها غير ملائمة بالمرة وأحياناً خطرة على انضباط الجيش. ثم إن الصدع يصبح أكثر وضوحاً بين الوحدات القادمة من جيوش حملة ألمانيا ذات الروح الأكثر "جمهورية" والوحدات القادمة من جيش حملة ايطاليا والمتعلقة بقائدها المهيب.

والانسحاب إلى مصر رهيب، إذ يقدم صورة مسبقة لبعض جوانب الانسحاب من روسيا في عام ١٨١٢. والحدث الأشهر هو حدث الموبوءين بالطاعون في يافا، لكن الشيء المميز هو أن أحداً لا يحسب حساب المتروكين على طريق الجنود جد المنهكين بحيث يعجزون عن السير. ويسجل كليبر هذه المشاهد في يومياته. ولدى عودته إلى مصر، يهتم بنفسه بمصير الموبوءين الأحياء بالطاعون:

"حتى لا يصل إلى قلب مصر وباء معد، جرى تكليف هذه الفرقة (فرقة كليبر) بنقل المصابين الذين كانوا راقدين، وعددهم نحو مائة، تحت أكواخ قطية. وقد تم هذا النقل بأعظم نظام وبأحسن رعاية. وقد شاء كليبر أن يشرف على ذلك بنفسه، وبما أن هؤلاء المرضي، في حُمىً طائشة، كانوا يلقون بأنفسهم على ركبتيه

ويمدون إليه أيديهم كما لو كان منقذاً لهم، فقد قال لهم: "يأبنائي، إنني مهتم بكم؛ وسوف نقتسم ما لدينا؛ ولكن لا تقتربوا مني أكثر من اللازم. فليس من المناسب أن أموت بالطاعون". وعلى غرار كليبر، اهتم جونو وفيرديه بأن لا يفتقر هؤلاء التعساء إلى أي شيء على هذا الطريق المهجور والمحروم من الموارد"[11].

وهنا أيضا فإن التباين قوي بين بونابرت الذي لا يبالي بمعاناة وبخسارة جنوده ولكنه يتصرف مع المصابين بالوباء كما لو كان يتمتع بهبة لدنية شبه دينية تجعله منيعاً في وجه الوباء، وكليبر البشري بكل معاني الكلمة.

ومن ثم لا ترجع فرقة كليبر إلى القاهرة وتستعيد موقعها الذي كانت قد تحركت منه في شرقي الدلتا. وذلك لأن نزول الجيش العثماني المحتشد في رودس يصبح الآن وشيكاً.

حواشي الفصل الرابع

١- "لقد جرى تنبيه القوات إلى الشقاء الذي ينتظرها حتى وصولها إلى الشام، وقد تلقت هذا التنبيه بشجاعة. وسوف يكون من الصعب أن ننتزع من أذهانها وهم العودة إلى أوروبا عبر الدردنيل. وقد رأيتني ملزماً بترك هذا الوهم لها". من رسالة كليبر إلى بونابرت، بتاريخ ٢٠ بلوفيوز من العام السابع (٨ فبراير ١٧٩٩).

٢- حول هذه المسألة، انظر كتابي: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر.**

٣- حول فلسطين في القرن الثامن عشر، انظر: عبدالكريم رفيق: **ولاية دمشق**، بيروت، ١٩٦٦؛ عمنون كوهين: **فلسطين في القرن الثامن عشر**، القدس، ١٩٧٣؛ موشيه ماعوز (اشراف): **دراسات حول فلسطين خلال العهد العثماني**، القدس، ١٩٧٥.

٤- شهادة موران لها دلالتها: "في ثلاثة أيام من حرب الخنادق، جرى ضرب مدينة يافا بالمدافع وتم الاستيلاء عليها عبر هجوم خاطف. ولم يحدث قط أن كان لحملة مثل هذه البداية السعيدة التي عرفتها حملة الشام. وعند نقل النبأ إلى كليبر لم يتمكن من منع نفسه من إبداء الدهشة ومن القول: "تلك ضربة حظ أخرى!". وقد أتاح لنا الاستيلاء على هذا المكان الحصول على مؤن غذائية، حيث إن المؤن التي كنا قد عثرنا عليها في الرملة كانت قد نفدت وكانت تكفي الجيش لمدة ثلاثة أيام بالكاد؛ وبوسع المرء أن يرى ما هي المخاطر التي كنا ستتعرض لها لو كان سوء الحظ قد وضع في طريقنا عقبة ما". ملاحظات السيد الجنرال موران حول عمليات الجنرال كليبر، الفرقة السادسة، منذ النزول إلى الإسكندرية، وحول قيادته لهذا الموقع وحول حملة الشام التي اشترك فيها، حتى عودة الجيش إلى القاهرة. **ريفي ديجيبت**، ١٨٩٥، ٢، ص ص ١٤٥-١٦٠.

٥- **المصدر السابق.**

٦- المصدر السابق.

٧- لاجونكيير، المجلد ٤، ص٦٣٧.

٨- بيرنواييه، **مع بونابرت في مصر وفي الشام**، دار النشر الفرنسية، آبفيل، ١٩٧٦، ص١٦٣.

٩- لاجونكيير، المجلد ٤، ص٥٢٩.

١٠- ب.مارتان، **تاريخ الحملة الفرنسية في مصر**، باريس، ١٨١٥، المجلد ٢، ص٣٠٦.

يقدم الأمير يوجين في مذكراته رواية أكثر انحيازاً لبونابرت:

"إلى ذلك الزمن يرجع ظهور عداوة بين القائد العام والجنرال كليبر جرى ارجاعها، خطأ، إلى غيرة الجنرال بونابرت. ولكي نرجع إلى المصدر الحقيقي لسوء التفاهم هذا، يجب أن نتذكر التنافس الذي كان موجوداً، وتواصل وجوده لوقت طويل، بين ضباط جيش الراين وضباط جيش حملة ايطاليا. ولو اقتصر هذا التنافس على التباري النبيل، لما ترتبت عليه غير نتائج مفيدة للجيش الفرنسي، لكن هذا التنافس تحول، للأسف، إلى كراهية وإلى حسد وضيع، تبعاً لشخصية كل ضابط؛ والحال أن ديزيه وكليبر، القادمين من جيش الراين، مسبوقين بسمعة عسكرية جميلة، يستحقها الأول والأخير على حد سواء، قد تركا انطباعات متباينة لدى جيش حملة مصر، والذي كان الجانب الرئيسي منه يتألف من جنود وضباط جيش حملة ايطاليا السابق. وكان ديزيه محل رضاء وقد فاز بحب الجميع لأنه كان طيباً وبسيطاً وعادلاً ولا تتسرب إليه المشاعر الحقيرة. أما كليبر، خلافاً لذلك، الفظ في كلامه، والمزعج والميال إلى النقد والمعارضة، فلم يكن يتمتع برضاء أحد وقد جر على نفسه عداوة كثيرين. وكان هناك أشخاص يسرهم أن ينقلوا إلى الجنرال بونابرت، بعد تسميمها، الأقوال التي يجيز كليبر فيها لنفسه الوقوف ضده والانتقادات المتصلة التي يوجهها إلى عملياته العسكرية، وكان من بين هؤلاء الأشخاص جونو الذي، بعد أن كان مجرد مرافق للقائد العام، أصبح قائد لواء، وكان يعمل

آنذاك في فرقة كليبر. لقد كنت شاهداً أكثر من مرة على التقارير التي كان جونو يقدمها إلى الجنرال بونابرت، وعلى إلحاحه في تأجيج غيظه، مثلما فعل مورا فيما بعد تجاه الجنرال مينو، والحال أن الجنرال كليبر، الذي نفد صبره، شأنه في ذلك شأن الجيش كله، من طول أمد حصار عكا وعدم جدوى هذا الحصار، كان قد قال في أحد الأيام إنه لا يفهم السبب في الاصرار على الوقوف أمام هذا الكوخ الخرب، وإنه، لو كان في مكان القائد العام، لطوى الخيام منذ وقت بعيد. وعندما قال أحدهم إن المسألة لها دخل بمجد الجنرال بونابرت، ردّ بنبرته الألمانية: "باه! باه! (عجباً عجباً !)، تلك بزة أنيقة عليها قليل من الغبار الذي يمكن نفضه بالإصبع". وهذا الكلام، المشرف في جوهره للقائد العام، جرى تحويره وتسميمه، شأنه شأن أقوال أخرى مماثلة، في التقارير المقدمة إليه، وبشكل أدى بالفعل إلى وقوفه ضد الجنرال كليبر. إلاَّ أن من المستحيل تخيل أنه قد شعر بالحسد تجاه هذا الجنرال. فرتبته وسمعته العسكرية تضعانه فوق هذا الجنرال بكثير، وهو سبب يكفي لمنعه من مثل هذا الحسد. والطبيعي أكثر هو أن نتصور أن كليبر هو الذي كان يشعر بهذا الشعور ضد جنرال أصغر منه سناً ويشعر بالاستياء من كونه أرقى منه. ومن الانصاف أيضا القول بأن الجنرال كليبر لم تكن تعوزه الأسباب الوجيهة لتوجيه النقد إلى حصار عكا، والذى تم الاضطلاع به بقدر من الاستخفاف ودون حشد الامكانات الضرورية لمواصلته بقوة" (**مذكرات الأمير يوجين ومراسلاته السياسية والعسكرية**، باريس، ١٨٥٨، المجلد١، ص ص ٥٩-٦١).

١١- التاريخ العلمي، المجلد٥، ص٣٨٠.

الفصل الخامس

رحيل بونابرت

تؤدي حملة الشام إلى إبراز الخلاف بين كليبر وبونابرت. فالألزاسي لا يتردد في تتوجيه النقد علناً إلى مسلك قائده خلال حملة الشام [1]. وعداؤه للمشروع الاستعمارى معروف للجميع.

على أن معركة أبوقير البرية سوف تعدل الوضع. وفي مساء الانتصار الباهر الذي أحرزه بونابرت، فإن كليبر، الذي لم يشترك في المعركة لأن قائده لم ينتظره، لا يسعه أن يمتنع عن الإعراب عن إعجابه بعبقرية بونابرت العسكرية. وسوف يخلد فيفان دينون هذا المشهد:

"قال له كليبر في لحظة حماسة وهو يعانقه: أيها الجنرال، إنك عظيم كالعالم، وهو ليس عظيماً بالقدر الذي يتسع لعظمتك"[2].

والتقارب نزيه، فكليبر يلتقي بالقائد الذي يتمنى الإعجاب به، ويكاد يتصالح مع مصر. وقبل أسبوع واحد من رحيل بونابرت السري، يوضح له بشكل قاطع:

"رأيت في الأمر اليومي أن لجنتين للعلماء سوف تسافران إلى مصر العليا، والشائعات تذكر أنك أنت نفسك سوف تقوم في وقت قريب برحلة كهذه؛ وسوف أعتبر أنك تسدي لي معروفاً خاصاً لو تفضلت وسمحت لي بصحبتك. فسوف يكون من المؤلم جداً لي أن أترك مصر دون أن أشاهد تلك الآثار العظيمة للأزمنة القديمة، وهل هناك ظرف أجمل وأنسب من هذا الظرف لذلك؟"[3].

يمكننا إذاً أن نفهم سخط وغضب كليبر في ٢٥ أغسطس ١٧٩٩ عندما يعلم برحيل بونابرت الذي يأخذه على أنه خيانة للجيش وغدر به هو نفسه(٤). وعلاوة على خيار بونابرت الذي يجعل منه قائداً عاماً، فإنه يجد نفسه مرغماً على قبول منصب كان قد رفضه دائماً.

فهل يُعَدُّ رحيل بونابرت هرباً؟ ذلك هو إحدى التيمات الكبرى للجدل حول نابوليون والذي يميز القرن التاسع عشر الفرنسي. ويجب أولاً أن نلاحظ أن بونابرت قد فكر كثيراً في مغادرة مصر. وبعد الاستيلاء على القاهرة مباشرة، في ٢٥ يوليو ١٧٩٨، في لحظة حيرة حميمة، كتب إلى أخيه جوزيف ليطلب إليه شراء بيت له ويفكر في العودة إلى فرنسا في غضون شهرين:

"حاول أن توفر لي منتجعاً ريفياً حال وصولي، إما قرب باريس، أو في بورجونيا؛ فأنا أريد قضاء الشتاء هناك والخلو إلى نفسي؛ إنني متبرم من طبائع البشر، وأنا بحاجة إلى الوحدة والعزلة؛ والأمجاد تصيبني بالضجر؛ وينابيع الحماس تجف. والمجد بلا مذاق فى التاسعة والعشرين؛ لقد استنفدت كل شيء: ولم يعد أمامي غير أن أصبح متوحداً حقاً. إنني أريد حماية بيتي: فلن أدعه أبداً لأي كان. ولم أعد أملك غير ما يقيني على ظهر الدنيا. وداعاً، صديقي الوحيد؛ إنني لم أكن قط ظالماً نحوك. وأنت تدين لي بهذا العدل، بالرغم من رغبة قلبي في أن يكون هو المدين لك به: هل تفهمني؟ تحياتي لزوجتك ولجيروم".(٥)

والواقع أن اتساع تعليمات حكومة الإدارة إنما يتيح له إمكانية العودة إلى فرنسا واختيار خلف له. وإذا كان يريد، في عام ١٧٩٩ بعد أبو قير، أن يرجع إلى فرنسا، فما ذلك إلاَّ لأنه يعرف أن قدره لم يعد في الشرق.

وقد حاول جورج دوان في تقدير قدمه في ١٠ مارس و٧

أبريل ١٩٤٢ إلى المجمع العلمي المصري أن يجلـو الألغـاز الـتي تحيـط برحيله[٦]. ومن المؤكد أنه قد فكر في ذلـك في يونيـو ١٩٤٠.[٧]

ويرى دوان، ويبدو برهانه مقنعـاً، أن المسـألة بـدأت بمنـاورة سامة، قام بها العميد البحري سيدني سميث، وتسـتند فعاليتـها علـى واقع حقائق مذكـورة.

فمـن ٢ إلى ٥ أغسـطس ١٧٩٩، تجـري محادثـات بـين الفرنسيين والأنجلو-أتراك من أجل تبادل الأسـرى بعـد معركـة أبـو قير. ويوفد العميد البحري إلي هذه المحادثات سـكرتيره الخـاص الـذي يذهب إلى الإسكندرية ويقـابل بونـابرت ويذكـر لـه أن حكومـة الإدارة قد استدعته للرجوع إلى فرنسـا[٨].

والواقع أن هذه الحكومة عازمة بالفعل على اسـتدعاء بونـابرت وجزء من جيشه أمام تفاقم الوضع العسـكري الناشـئ عـن الهزائـم الفرنسية في نهاية حروب الائتلاف الثـاني:

"لك أن تقدر، أيها المواطن الجنرال، مـا إذا كـان بوسـعك أن تترك مرتاحاً في مصر جزءً من قواتك وحكومـة الإدارة تـترك لـك، في هذه الحالة، أن تعهد بقيادتها إلى من تراه مناسـباً لذلـك.

"وسوف تسعد حكومـة الإدارة بعودتـك علـى رأس الجيـوش الجمهورية التي قدتها حتى الآن قيادة جـد مجيـدة"[٩].

وقرار حكومة الإدارة السري هـذا، بـالرغم مـن إرسـاله، لا يصل إلى مصر كمـا لا يسـقط في أيـدي الإنجليـز. لكـن هـؤلاء الأخيرين يعرفون محتواه من خـلال اسـتخباراتهم[١٠].

وهكذا يبلغ الإنجليز بونابرت بـأمر الاسـتدعاء. والحـال أنـه يفكر في الرحيل بالفعل منذ معركة أبوقير حيث يعـرف عـن طريـق الأسرى الترك حرج وضع فرنسا[١١]. ومـن الواضـح أنـه لا يمكنـه إشعار قادة فرقه بأمر الاستدعاء هذا، وذلـك بسـبب مصـدر علمـه به. ولذا فإنه يكتفي بالإشارة إلى واجب الامتثال لأوامـر قادمـة مـن

باريس، الأمر الذي يتركهم في حالة من عدم التصديق.

والهدف الأساسي لمناورة سيدني سميث معروض في رسالته إلى اللورد سبنسر بتاريخ ٩ أغسطس ١٧٩٩:

"لقد أرسلت السفينتين **ثيسيوس وكاميليون** مع سفينتين حربيتين تركيتين كبيرتين، للتجول على مسافة بعيدة من غرب الإسكندرية، سعياً إلى منع باي بنغازي من إرسال مؤن إلى بونابرت وسعياً إلى اعتراض سبيل الأميرال جانتوم الذي، ولدي أسباب لاعتقاد ذلك، سوف يحاول التحرك مع فرقاطتين وحراقة وسفينة شراعية. وربما ينجح بونابرت نفسه في الإفلات برقبته من الطوق تاركاً القيادة لكليبر. وإذا ما حدث ذلك، فإن كليبر سوف يرضخ أمام نداءات الجيش ويتفاوض من أجل إعادته إلى الوطن، عندما يتم حشد قوة كافية ضده لتبرير مثل هذا الإجراء... إنه جندي وهو لا يراهن على فتح الهند أو على خصوبة المستعمرة الجديدة؛ وهو يفضل لو كان على ضفاف الراين على أن يكون في أي مكان آخر وكل الباقين يحبذون لو كانوا في أي مكان آخر على أن يكونوا في مصر. وقد حصلت على براهين على ذلك خلال الاتصالات التي أجريناها مؤخراً معهم، وسوف يكون من الخسران أن لا نتمكن من ممارسة ضغط بالغ القوة عليهم لدفعهم إلى اتخاذ قرار بالجلاء"(١٢).

لقد حلل العميد البحري حالة الجيش المعنوية تحليلاً رائعاً. وسوف نجد من جديد أصداء هذا العمل السيكولوجي الإنجليزي في شقاقات القيادة الفرنسية في عهد مينو والتي سوف تقود إلى فشل الحملة نفسها. وهنا يلعب (العميد البحري) على التعارض بين شخصيتي كليبر وبونابرت مبرزاً مهارة عظيمة جداً في هذا اللعب كما أنه يستشف بشكل رائع الصفاء مسار الأحداث التالي.

أمّا ما لم يتمكن من توقعه في سير عمل المصيدة، فهو

مشكلات التموين والإمداد التي أدت إلى شلل قوات المراقبة البحرية الإنجليزية في قبرص مدة أطول من المتوقع. والسفن المرسلة على طول الساحل الليبي لن تصل إلاّ بعد وقت طويل من رحيل بونابرت.

وتروج الشائعات آنذاك عن اتفاق سري بين بونابرت وسيدني سميث. وكلام نقولا الترك، الذي يراقب الوضع المصري لحساب أمراء الجبل اللبناني، يردد هذه الشائعات:

"انتقل [بونابرت] إلى الإسكندرية. وبعد أيام وجيزة، دبّر أمر السفر، وهيأ له ثلاثة مراكب. وأرسل لهم، ليلاً، عدة صناديق مملوءة بالجواهر الثمينة... وبعد ذلك التدبير، صنع وليمة عظيمة إلى الجنرال سميت، سر عسكر الإنكليز... ومن عادة الإفرنج أن، في الأيام التي لم يكن فيها حروب، فليس فيه امتناع عن بعضهم البعض. وحين حضر الجنرال سميت ساري عسكر الإنكليز، قدم له أمير الجيوش غاية الإكرام، وأعطاه هدايا جزيلة الثمن، ثم طلب منه بأن يأذن له أن يرسل ثلاثة مراكب صغار إلى بلاد فرنسا، فأذن له بذلك. وبعد رجوع ساري عسكر الإنكليز إلى مراكبه في تلك الليلة، نزل بونابرته في تلك المراكب بمن معه من الرجال، وخرج من البوغاظ بريح عاصف. وفي ثاني الأيام، بلغ خبر مسيره إلى الجنرال سميت، فعظم عليه ذلك الأمر، وأقلع بمراكبه في طلبه، فلم يجد له خبراً ولا رأى له أثراً. ونجى منهم بحسن خبرته ومزيد فطنته وسمو حكمته. وقد استغنم الفرص وفر منهم كما يفر العصفور من القفص. وبقوة المولى العزيز نجى من أعدائه الإنكليز، ووصل إلى مدينة باريز، وخلص حاله بتدبير ذلك الأمر، وكان نفوذه من عجايب الدهر"[١٣].

ويستخدم ميشليه هذه الشهادة في كتابه **تاريخ القرن التاسع عشر** ليهاجم بونابرت بعنف[١٤]، لكن غالبية

المعلقين كمدام دوستايل وستندال، خصوم أو أنصار نابوليون، إنما يعترفون بجسارة المغامرة.[١٥]

وليس هناك ما نختتم به أفضل من الاستشهاد بصفحة شاتوبريان الرائعة في **مذكرات من وراء القبر** المكرسة لهذا الحدث:

"لم يستعد المحارب قط نبرات مماثلة: إن نابوليون هو الذي ينتهي[١٦]، والامبراطور الذي سوف يأتي، سوف يكون، بلاشك، أكثر إثارة للدهشة بكثير، ولكن ما أكثر ما سيكون أكثر عرضة للمقت! إن صوته لن يعود له جرس أعوام الشباب: فالزمن والاستبداد ونشوة النعيم سوف تبدله.

"لا شك أن بونابرت كان سيشكو لو كان قد أجبر، بموجب القانون المصري القديم، على أن يعانق لمدة ثلاثة أيام الأطفال الذين تسبب في هلاكهم. لقد فكر، لأجل الجنود الذين تركهم معرضين لوهج الشمس، في تلك التسليات التي استخدمها الربان باري بعد ذلك باثنين وثلاثين عاماً لأجل كارثة في ليالي القطب الباردة الثلجية[١٧]. وأرسل وصية مصر إلى خلفه الشجاع الذي سرعان ما سوف يتم اغتياله، واختفى سراً مثلما أفلت قيصر سباحة في ميناء الإسكندرية. أما كليوباترا، تلك الملكة التي سماها الشاعر بالمعجزة التي لا سبيل إلى مقاومتها، فلم تكن في انتظاره؛ وقد ذهب إلى الموعد السري الذي حدده له القدر، وهو قوة أخرى غير مخلصة. وبعد أن ألقى بنفسه في الشرق، مصدر الشهرات الرائعة، عاد إلينا، دون أن يصعد مع ذلك إلى القدس، مثلما لم يدخل قط روما. والحال أن اليهودي الذي كان يصرخ: يا للمصيبة! يا للمصيبة! قد جاس حول المدينة المقدسة دون أن يدخل بيوتها الخالدة. إن شاعراً، هارباً من الإسكندرية، هو آخر من يصعد على متن الفرقاطة المغامرة.[١٨] إن بونابرت، الذي استولت على خياله معجزات يهودا وذكريات مقبرة الأهرام، يجتاز البحار غير عابئ ببوارجها ومهاويها: فكل شيء يمكن اجتيازه بالنسبة لهذا العملاق، الأحداث وأمواج البحر المتلاطمة"[١٩].

حواشي الفصل الخامس

١- على سبيل المثال في رسالته إلى دوجا، بتاريخ ٣ ميسيدور (٢١ يونيو ١٧٩٩): "لقد اقترفنا في الأرض المقدسة خطايا جسيمة وحماقات كبرى، إلاّ أنه يجب أن نترك ستار الظل ينسدل على هذا كله وأن نحرص على عدم رفعه، مخافة أن يعاقبنا العلي القدير، في غضبه، على تهورنا".

٢- **رحلة في مصر السفلى والعليا**، باريس، ١٨٠٣، ص٢٢٠.

٣- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ١ فروكتيدور من العام السابع (١٨ أغسطس ١٧٩٩).

٤- لا يعترف لاجونكيير بدقة الأقوال التي نقلها لارفيليير - ليبو (**مذكرات**، باريس، دون تاريخ (١٨٩٥؟)، المجلد٢، ص٣٤٨): "عندما وصل نبأ فرار الجنرال إلى جيشه، لم يعد بالامكان كبت الكراهية التي كان هدفاً لها. فقد انفجرت من كل حدب وصوب. وفي تلك المناسبة، قال كليبر للرماة المحيطين به، بنبرة من أكثر النبرات قتالية، وإن كان بقوة لا مزيد عليها بالتأكيد: "أصدقائي، لقد ترك لنا ذلك البـ... هنا كيلوتاته المليئة بـ... سوف نرجع إلى أوروبا ونلقيها على وجهه!"

ورواية ديجينيت رواية أرجح: "قال: دون أن يكون بوسعي الاعتراض على ذلك، يلقون على كاهلي المسئولية عن مصر... إن الرواتب متأخرة... وقد فقد أهل البلاد عادة الدفع، ورجلنا يرحل وسط هذه الظروف ويحرق فراش القش مثل ملازم يملأ قهاوي إحدى الحاميات بضجيج عن ديونه وجهالاته" (لاجونكيير، ٥، ص٦٤٦).

٥- **المصدر السابق**، ٢، ص٢٠٨.

٦- **بولتان دو لينيستيتو ديجيبت**، ٢٣، ص١٨٥...

٧- **المصدر السابق**، ص٢٠٥: "إن الفرنسيين آنذاك لم يكونوا يسمحون لأنفسهم بالارتماء على الأرض من جراء نكسة".

٨- **المصدر السابق**، ص ص ١٨٩-١٩١.

٩- **المصدر الســـابق**، ص١٩٢.

١٠- **المصدر الســــابق**، ص ص ١٩٤-١٩٥.

١١- لاجونكيـــير، ٥، ص٤٦٠.

١٢- **بولتان دو لينيســتيتو ديجيبــت**، ٢٣، ص١٩٠.

١٣- لاجونكيـــير، ٥، ص ٥٩٢.

١٤- "في عام ١٨٣٩ فقط، انكشف هذا السر لأوروبا عن طريـــق كتـــاب عـــربي قرأه قليل من الناس بالرغم من أن الســـيد ديجرانـــج، الأســـتاذ بـــالكوليج دو فرانس، قد ترجمه إلى الفرنســـية. (....) لقـــد احتـــاج بونـــابرت إلى خمســـة وأربعين يوماً لكي ينجز هذا الاجتياز البسيط للبحر، وقـــد قـــال، في تفســـيره لهذا التأخير، إنه قد أخذ طريق سواحل افريقيـــا الأطـــول. إلاّ أن بوســـعنا أن نتصور أيضاً أنه كان ينتظر السماح لـــه بـــالمرور. وإذا كـــان الانجلـــيز قـــد سوفوا في ذلك، فإن ذلك إنما يرجع إلى انهم كـــانت لهـــم مصلحـــة في منـــع جمهوريينا من التغلب على الملكيـــين".

١٥- مدام دوستايل. **ملاحظـــات حـــول الثـــورة الفرنســـية**، بـــاريس، ١٩٨٣، ص٣٥٥:

"لقد تكرر القول كثيراً بأنه برحيله آنذاك خان جيشه. ولا شك أننا بإزاء نـــوع من الترفع ما كان يجب له أن يسمح لجنرال بأن ينفصل على هذا النحـــو عـــن أولئك الذين ساروا وراءه والذين يتركهم في وقت الشدة. لكن الجنرال بونـــابرت قد جازف بمواجهة الأخطار وهو يجتاز بحراً مغطى بالسفن الانجليزية؛ والمخطـــط الذي دعاه إلى فرنسا كان في حد ذاته جريئاً إلى أبعد حد بحيث يصبح من الحماقة اعتباره جباناً لرحيله عن مصر. ولا يجب الهجوم على شخص من هـــذا النـــوع بإدانات دارجة: فكل إنسان ترك أثراً عميقا على البشر الآخرين يجب فهمه فـــهماً عميقاً قبل اصدار حكم عليه."

ستندال، **حياة نابليون**، الأعمال الكاملة، لـــوزان، المجلـــد١١، ص٥١:

"إن الزمن هو الذي سوف يوضح لنا ماإذا كان نابوليون، كمـــا أعتقـــد، قـــد تم استدعاؤه إلى فرنسا بناء على رأي بعض الوطنيـــين الأذكيـــاء أم أنـــه هـــو

الذي قرر اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة بناءً على تفكيره الخـــاص وحـــده. ومـــن المناسب لجميع القلوب العظيمة أن تفكر في الشيء الـــذي لابـــد أنـــه كـــان يعتمل في تلك الروح: من ناحية، الطموح وحـــب الوطـــن والأمـــل في تـــرك اسم عظيم في سجلات التـــاريخ؛ ومـــن ناحيـــة أخـــرى، امكانيـــة اعتقـــال الانجليز له أو قتله بالرصاص. أما اتخـــاذ موقـــف جـــد قـــاطع تجـــاه المســـألة استناداً إلى مجرد اعتبارات ظرفية، فهو مجـــرد تخشـــب في اصـــدار الحكـــم! إن حياة هذا الرجل هي أنشودة لعظمة الـــروح".

١٦- استشهد شاتوبريان برسالة بونابرت الوداعيـــة إلى كليـــبر.

١٧- ربما المسرح، بونابرت: "لقد طلبت بالفعل عدة مـــرات فرقـــة مـــن الممثلـــين؛ وسوف أهتم نحو خاص بإرسال فرقة إليـــك. فـــهذا الموضـــوع جـــد مـــهم للجيش وللبدء في تغيير عادات البـــلاد".

١٨- إن بارسفال – جرانميزون، الذي، إذ وصل في آخـــر لحظـــة ودون أن يكـــون قد حصل بشكل مسبق على تصريح رسمي، قـــد وجـــد صعوبـــة كبـــيرة في السماح له بالسفر. لاجونكيـــير، ٥، ص٦١٠.

١٩- **مذكرات من وراء القبر، الجزء ٣، حياة نابوليون، حملـــة مصـــر.**

الفصل السادس

قيادة كليبر[1]

هكذا يجد كليبر نفسه ضد إرادته قائداً عاماً لجيش الشرق .وهو يتحمل مسئولية جميع السلطات العسكرية ويتعين عليه أيضاً أن يدير بلداً واسعاً .وثقل قرار مواصلة المغامرة المصرية أو إنهائها إنما يتوقف عليه..

والظروف صعبة: فأخبار أوروبا والتي يجد الإنجليز لذة في نقلها إليه، هي أخبار كارثية وليس من شأنها إلاّ أن تؤثر علي القائد الجديد .واللوحة التي يرسمها لهذه الظروف في رسالته إلى ديزيه وبوسيلج والمؤرخة في ١٣ نيفوز من العام الثامن، هي لوحة بالغة الدلالة:

"إذا كان لابد من تطبيق الفقرة الثانية عشرة من رسالة الجنرال بونابرت على ظرف ما، فمن الواضح أن هذا الظرف هو الظرف الماثل: لقد ضاعت إيطاليا، وخرج الجيش البحري من البحر المتوسط وحوصر في ميناء بريست، وسقط الأسطول الهولندي تحت سيطرة الأعداء، ووصل الإنجليز والروس إلى هولندا، وتم دحر موللر على الراين، وجرى ترك الدفاع عن حدود الألزاس لسكانه، وانبعثت الفانديه من رمادها واحترقت ماينس .والجهاز التشريعي يقترح اعتبار الوطن في خطر ثم يتخلى عن هذا الاقتراح، ليس لأن الخطر غير موجود في الواقع، وإنما لأن المرسوم الذي يمكنه الإشارة إليه لا يتضمن أي علاج له: فما الذي يمكن أن يكون أكثر إزعاجاً من ذلك!"[2].

وهذا الوضع الدرامي لا يمكن إلاّ أن يدفع الوطني الألزاسي إلى التضحية بمصر حتى يتسنى له نجدة الوطن الذي يتعرض للخطر:

"إنني أعتقد أن عليَّ (...) السعي إلى الخروج من بلد لا يمكنني، من أكثر من زاوية، الاحتفاظ به؛ وهو أمر لا يبدو حتى أن هناك من يهتم به في فرنسا، اللهم إلاّ بمجرد البرهنة[٣] على فتحه .إن الأمل في تعزيز سريع وكاف قد دفعنا إلى العمل على كسب الوقت، إلاّ أنه مع دمار الأمل، فإن الوقت الذي نقضيه هنا هو وقت ضائع بالنسبة للوطن: فلنسارع إلى أن نقدم له عوناً لا يملك هو تقديمه إلينا"[٤].

والجيش نفسه لم يعد يحتمل وجوده في مصر .بل كان قد أبدى بالفعل تذمره الشديد في عهد بونابرت .ورحيله، الذي جرى اعتباره تخلياً، قد وجه ضربة رهيبة إلى المعنويات بالرغم من بيانات كليبر التي تتحدث عن احتمال عودة قريبة، وبالرغم من الترحيب باعتلائه المنصب الأعلى.

وتتكاثر التمردات، خاصة في دمياط وفي الإسكندرية .والحال أن كليبر يقمعها بقوة .لكن هذا لا يمنع قيام جزء من حامية العريش، التي يحاصرها الأتراك، برفض الإذعان لأوامر الضباط وبرفع راية الاستسلام في ٢٩ ديسمبر ١٧٩٩[٦].

كما يرجع سخط الجيش إلى الوضع المالي الكارثي: فالقوات لم تحصل على مرتباتها منذ عدة أشهر.

وسوف يتجه كليبر، منذ توليه القيادة، إلى إجراء مسح شامل للوضع .وهذا المسح يقوده إلى شجب التركة الكارثية التي خلفها سلفه .ورسالته إلى حكومة الإدارة، بتاريخ ٤ فانديميير من العام الثامن (٢٦ سبتمبر ١٧٩٩) ليست غير قرار اتهام طويل ضد بونابرت . ولكي يعزز دعواه أكثر ما يمكن، فإنه يقدم تقديراً متشائماً جداً للإمكانات العسكرية[٧] .ومن سخريات القدر أن

الإنجليز سوف يعترضون سبيل هذه الرسالة ويستولون عليها ويسلمون بصحة الأرقام التي يقدمها كليبر. ومن ثم يصبحون بدورهم ضحية لمناورة تخدير غير مقصودة.

والواقع أن الوضع في أوروبا والحالة المعنوية للجيش والمحنة المالية[٨] هي التي تشكل دوافع كليبر بأكثر بكثير من حالة الإمكانات الفعلية لقواته المقاتلة .فالشيء الأساسي هو أنه لم يعد يؤمن بأهمية الحملة:

"إن إنشاء مستعمرة دون حكومة مستقرة، ودون بحرية، ودون أموال، بينما الحرب القارية المرعبة قاب قوسين أو أدنى، هو غاية الجنون؛ فهذا يعني الاضطلاع بمحاصرة موقع دون هيمنة في المعركة ودون ذخيرة حربية"[٩].

ولتقليل الضرر، ينبغي من ثم التفاوض على جلاء يحفظ الشرف العسكري كما حدث في ماينس، قبل ذلك بسبع سنوات. لقد أصاب سيدني سميث الرؤية.

وقد جرت الاتصالات الأولى منذ أكتوبر ١٧٩٩ .وفي ٢٨ نوفمبر، يحصل العميد البحري الإنجليزي على تفويض من الباب العالي بتمثيله .ويجري تفويض ديزيه، المناوئ لمبدأ الجلاء، وإن كان يلتزم الطاعة (يريد كليبر بذلك إشراك رفيقه في السلاح في قرار الانسحاب) وبوسيلج (عن الجانب الفرنسي) .ويؤدي سقوط العريش إلى التعجيل بالعملية مع اقتراب الجيش التركي . ويجري توقيع اتفاق العريش في ٤ بلوفيوز من العام الثامن (٢٤ يناير ١٨٠٠)، وهو ينص على جلاء مشرف وعلى عودة الجيش الفورية إلى أوروبا حيث يمكنه المشاركة في العمليات الحاسمة لعام ١٨٠٠.

وفي ذلك اليوم، يجد كليبر نفسه موزعاً بين مجده ومايعتبره مصلحة فرنسا العليا:

"مصلحتي الشخصية وحدها هي التي كانت تتطلب أن

أخوض معركة، ولذا فقد نمت طول المساء وقراري هو خوضها، وما أن جاء الصباح، مع استيقاظي، حتى أوحت لي أفكار أكثر هدوءاً وتعقلاً بأنه لابد للمرء من التضحية بمجده الشخصي لأجل الصالح العام، دون أن يوقفه عن ذلك حتى ماينتظره من عدم إنصاف"(١٠).

وفي اللحظة الأخيرة يرفض سيدني سميث ضم توقيعه إلى توقيع المندوبين العثمانيين .فهو يرى أنه لم يحصل على تفويض من حكومة لندن باتخاذ مثل هذا القرار .وهو يرى أن دوره لم يتجاوز الوساطة .ومن ثم فإن الاتفاق لا يلزم إلاّ الفرنسيين والعثمانيين.

وبعد ذلك بوقت قصير، يعرف كليبر نبأ انقلاب ١٨برومير واستيلاء بونابرت على السلطة .وهذا النبأ تنشره أولاً الصحف الأجنبية التي ينقلها الإنجليز في ١٤ فبراير ١٨٠٠ .ويرى كليبر أنه قد فات الأوان الآن للتراجع عن رأيه:

"ليس هناك ما يدعو الجنرال بونابرت إلى الخوف مني، فهو الآن، بدلاً من أن يكون طرفاً، أصبح قاضياً في مسألة يعرفها مثلما أعرفها تماماً، وإذا كان عادلاً، فلابد للجيش ولي أيضاً من توقع الاستقبال الأكثر تميزاً .وإذا كان غير عادل، فإنه سوف يجر العار على نفسه بالرغم من قوته وعندئذ فإن جريرة ذلك سوف تكون من عمله"(١١).

ويتأكد النبأ بوصول لاتور-موبور، الذي أرسله القنصل الأول لإبلاغ جيش الشرق بتغير النظام .وفي تلك الأثناء، مستفيداً من وقف القتال، يرجع ديزيه إلى أوروبا ليلقى هناك أيضاً مصيره.

ويشعر كليبر الآن بأن الجمهورية لم تعد غير كلمة فارغة من المعنى وبأنه لا مكان له في النظام النابوليوني الآخذ في التشكل:

"لابد للأمر من أن ينتهي على هذا النحو، عاجلاً أم آجلاً، لا فرق .ولا فرق أيضاً بين أن يكون الاسم هو جاك أو بول،

مادمنا سوف نكون قـــادرين علـــى أن نواصـــل الكتابـــة علـــى رأس رسائلنا: **الجمهورية الفرنسية، الحرية، المســـاواة**، فـــهذا هـــو الشـــيء الأساسي؛ وأظن تماماً أن المرء لن يكون أكـــثر مدعـــاة للســـخرية لـــو طالب بما هو أكثر من ذلك .ولكن عليكـــم أن تراهنـــوا، أنتـــم أيـــها الفرنسيون في مصر، على مدد سريع قوامه خمسة عشـــر ألـــف رجـــل، وسط كل هذا الصخب ووسط حرب قارية أكثر هـــولاً ممـــا سـبق في أي وقت، دون مال ودون بحريـــة .فـــالمطلوب هـــو الاعـــتراف بأننـــا أحسنا اختيار اللحظة لإقامة مســـتعمرتنا؛ وكلمـــا أمعنـــت النظـــر في العملية التي وضعتُ للتو حداً لها، كلمـــا زاد اقتنـــاعي بـــأن الأجيـــال القادمة سوف تمنحني إكليلاً لأنـــني واتتـــني الشـــجاعة لإيجـــاد مخـــرج معقول من مشروع أرعن تخلى عنه صاحبه بجـــبن .إلاَّ أنـــه إذا كـــان الملك ينظر وإذا كان عادلاً، فسوف يقول إن هـــذا صحيـــح؛ أمـــا إذا كان غير عادل، فالجريرة جريرته، والأمر ســـيان عنـــدي"[١٢].

وتشير يوميات كليبر بوضوح إلى أن انقـــلاب ١٨ برومـــير هـــو في نظره بداية استبداد جديد، فالجمهورية "لم تعـــد موجـــودة، علـــى الأقل وفقاً للمعنى الذي يرتبط بهذه الكلمـــة".

على أن كليبر لن يحارب النظام الجديـــد:

"إنني لن ألتقط أبداً من الوحل شـــارة اليعاقبـــة الدمويـــة وإنـــني لأجد أن مما لا يليق بي -- بعد الدور الذي أجـــبرني القـــدر علـــى لعبه في هذه الثورة -- تأمين سيد ولو للعبيـــد".

كما أنه لن يخدمـــه:

"- وهل ستخدم في ظل حكومة كـــهذه؟

"- لا، ما لم أُجبر على ذلـــك.

"- هذا غريـــب.

"- أبداً .إن بوسع أكلة أن تكون لذيذة تمامـــاً لأربعـــة وعشـــرين مليون نسمة ومع ذلك قد أتقزز منها كثـــيراً.

"- وما الذي سوف تفعله في هذه الحالة؟

"- سوف أختار من العالم المكان والحكومة الأكثر ملاءمة لي .إن نظامه، الذي يختاره الناس بحرية، بصرف النظر عن ماهيته، سوف يبدو لي أقل فجاجة".

ويحترم كليبر احتراماً صارماً بنود اتفاق العريش .وتدريجياً تخلي القوات الفرنسية الوادي لتتجمع في القاهرة بينما يتخذ الجيش العثماني مواقعه على مقربة من عاصمة مصر.

لكن الحكومة الإنجليزية ترفض الموافقة على الاتفاق الذي لم توقع عليه: ورسالة كليبر الشهيرة إلى بونابرت تدفعه إلى الاعتقاد بأن جيش الشرق على وشك الهلاك وأنه على وشك الاستسلام دون شروط في حين أن تجميع القوات الفرنسية في القاهرة إنما يسمح في الواقع بتحقيق الحشد، الذي يشكل مفتاح الانتصار في العصر الثوري والإمبراطوري.

ويحاول كليبر وسيدني سميث التسويف، لكن العثمانيين، واثقين من حسن نواياهم، لا يقبلون وقف حركتهم الرامية إلى احتلال مصر .وتصبح المواجهة حتمية.

وفي ٢٧ فينتوز من العام الثامن (١٨ مارس ١٨٠٠) يبلغ كليبر الجيش بالرفض الإنجليزي:

"أيها الجنود،

إليكم الرسالة التي وجهها إليّ القائد العام للأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط:

"على متن سفينة صاحب الجلالة **الملكة شارلوت**، في مينوركا، في ٨ يناير.

سيدي

بالنظر إلى أنني قد تلقيت أوامر مؤكدة من صاحب الجلالة بعدم الموافقة على أي اتفاق مع الجيش الفرنسي الذي تقودونه في

مصر وفي سوريا، اللهم إلاَّ في حالة إلقائه السلاح واستسلامه كأسير حرب وتخليه عن جميع الذخائر في ميناء ومدينة الإسكندرية للدول المتحالفة، وفي حالة حدوث استسلام، بعدم السماح لأي جنود بالعودة إلى فرنسا ما لم يكونوا مبادلين، فإنني أرى لزاماً علىَّ إبلاغكم بأن جميع السفن التي يوجد على متنها جنود فرنسيون والتي تبحر من هذا البلد بموجب جوازات سفر موقعة من جهات أخرى غير الجهات التي تملك حق منحها، سوف يجبرها ضباط السفن التي أقودها على العودة إلى الإسكندرية، وأن السفن التي سوف تُقَابَلُ عائدة إلى أوروبا، بموجب جوازات سفر ممنوحة بناء على اتفاق خاص مع إحدى الدول المتحالفة، سوف يجري الاستيلاء عليها وسوف يعتبر جميع الأفراد الموجودين على متونها أسرى حرب.

كيث"

"أيها الجنود

إننا سوف نرد على مثل هذه الرسالة الوقحة بإحراز انتصارات، استعدوا للقتال.

كليبر"(١٣)

ويسحق كليبر الجيش العثماني في هليوبوليس (عين شمس)، ويستعيد زمام القاهرة الثائرة بعد عدة أيام من المعارك الرهيبة وفي غضون وقت قصير يعيد فتح مصر كلها .وهو يتفاهم مع مراد بك الذي يتحمل المسئولية عن إدارة مصر العليا لحساب الفرنسيين.

وهكذا فإن كليبر، مدفوعاً بقوة الأشياء، يصبح من جديد سيد البلد.

وإذا كان قد كره هذه القيادة العامة إلى درجة أنه أعلن ذلك أمام الجيش(١٤)، فإن كليبر سوف يترك مع ذلك بصمة مهمة في تاريخ مصر.

فنحن ندين له بالقرار المهم الخاص بتأليف عمل ضخم حول البلد، هو ماسوف يحمل بعد ذلك اسم **وصف مصر**، والذي سوف يكون أعظم تركة للحملة .والواقع أنه يأمر في ١ فريمير من العام الثامن (٢٢ نوفمبر ١٧٩٩) باجتماع اللجان سعياً إلى:

"الاحتشاد لنشر المعارف والتنافس في إقامة أثر أدبي جدير بالاسم الفرنسي.

"ولذا فإنني أرغب في اتخاذ تدابير فورية للتأكد من تحرير الأعمال المختلفة لتوزيع المواد وتحديد من سوف يتولى المسئولية عن تنظيم مجمل هذه اللوحة الجميلة والربط بين جميع أجزائها.

"وسوف يستشعر المعهد ضرورة مقدمة عامة ناجزة، كما يتوجب على جميع الفنانين مراعاة أن الآثار والرسوم المتحدة النوع يجب أن تتعامل معها يد واحدة، عندما يتصل الأمر بنقلها إلى من سيتولى نقشها"(١٥).

وبحكم تحمله أعباء الإدارة، فإنه يحاول إعادة تنظيم الشئون المالية للبلد .وفي ٢٨ فروكتيدور من العام السابع (١٤ سبتمبر ١٧٩٩) يقسم مصر إلى ثماني دوائر، وفي اليوم التكميلي الثاني للعام السابع (١٨ سبتمبر ١٧٩٩) خاصة يلغي مجمل **الالتزامات** في القرى المصرية مستعيداً بذلك الصلة المباشرة بين الفلاح (أو شيخ القرية على أية حال) والدولة .كما أن مصادرة بونابرت لثروات المماليك وتحويلها إلى ملكية عامة وقرار كليبر الذي لن يجري تطبيقه إلاّ جزئياً وعمل خلفه الإصلاحي سوف توجه كلها ضربة قاضية إلى نظام **الالتزام** .ومحاولة الاسترداد العثماني بعد ١٨٠١ وعمل محمد علي سوف ينجزان العملية وسوف يتباين تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي عن تاريخ البلدان العثمانية الأخرى.

والحال أن مينو، وهو نصير للنظام الاستعماري منذ البداية، إنما يعارض تحرك كليبر في اتجاه الجلاء .والعلاقات تتوتر آنذاك بين

الرجلين اللذين يعرف أحدهما الآخر منذ الفانديه .ويستفيد الأول من استعادة الاتصالات مع أوروبا بعد اتفاق العريش لكي يندد لدى بونابرت وحاشيته بمسلك كليبر.

ويسمح استرداد مصر بعد معركة هليوبوليس بتحسن لأحوال الجيش المالية، اعتماداً على غرامات حربية فادحة مفروضة على السكان الحضريين وخاصة على الأعيان بمن في ذلك أكبر العلماء كالشيخ السادات .وهذا الأخير يتم ضربه بالعصا لرفضه دفع جزء من غرامته.

واستيلاء بونابرت على السلطة في فرنسا يعني أن سلطة قوية توجد الآن في فرنسا .وترمز انتصارات ماسينا في خريف ١٧٩٩ إلى حدوث تحسن عسكري لحساب فرنسا في أوروبا.

وتتعزز معنويات الجيش من جراء موقف الإنجليز في مسألة اتفاق العريش ومن جراء انتصار هليوبوليس .ولا يعود الجلاء وارداً في جدول الأعمال.

ومن ثم يمكن للمشروع الاستعماري أن يصبح وارداً من جديد. ويضغط مينو في هذا الاتجاه لدى كليبر، في ١٣ بريريال من العام الثامن (٢٣ مايو ١٨٠٠):

"أجل، قائدي الجنرال، إذا كان الاستسلام الذي تم في العريش، في رأيي، خطأ سياسياً، فإن الانتصار الباهر الذي أحرزتموه وفتحكم الجديد لمصر، قد كللكم بالمجد .ولا يوجد في العالم من لم تراوده الرغبة في عمل كل ما فعلتموه.

"قائدي الجنرال، إنني لا أود إلاّ أن أكون رفيقك في المجد، ومعاونك، مثل كل الضباط القادة الذين يعملون تحت إمرتك. ولتتذكر أنك كنت وسوف تكون مؤسس مستعمرة رائعة إذا ما تسنى لفرنسا على أية حال أن تحتفظ بمصر عند التوصل إلى الصلح العام"(١٦).

والحال أن رد كليبر المؤرخ في اليوم نفسه يمكن اعتباره وصيته السياسية:

"تلقيت رسالتك، أيها المواطن الجنرال .إن ذهولي لا حد له لأنني مازلت إلى اليوم لا أعتقد أن اتفاق العريش كان خطأ سياسياً، ولأنني لا أعتقد أن الانتصار الذي أحرزه الجيش يمكن أن يكون موضوعاً للزهو، ولأنني مازلت إلى اليوم على إيمان بالغ العمق بأنني قد تمكنت، عن طريق هذه المعاهدة، من إيجاد مخرج معقول من المشروع الأكثر رعونة، ولأنني مازلت إلى اليوم على اقتناع بأننا لا يمكننا الأمل في أي عون من فرنسا، وبأننا لن نشكل مستعمرات في مصر أبداً أو على الأقل خلال هذه الحرب، ولو لمجرد أن زارعي القطن وزارعي النخل لن ينتجوا بسرعة جنودا وحديداً مسبوكا (...) وفي جميع الحالات، سننهي عند هذا الحد مناقشاتنا السياسية .إنك، أيها الجنرال، تدير وجهك صوب الشرق، أمّا أنا، فإنني أدير وجهي نحو الغرب؛ ونحن لن نتفق أبداً"(١٧).

ومع تحويل وجهه صوب الغرب، يواصل كليبر إعادة تنظيم مصر .وبعد ذلك بثلاثين سنة، فإن كُتّاب كتاب الشهادات الذي يحمل عنوان **التاريخ العلمي** سوف يواصلون تذكر ذلك:

"في هذه السلسلة من الأعمال المهمة، أبدى كليبر ذكاءً ونشاطاً يكشفان عن إنسان جديد، عن عبقرية أوسع مما كان متصوراً حتى ذلك الحين .لقد جاء يوم الامتحان: ويمكن القول إن المسرح قد تغير بالنسبة له بقدر تعاظم دوره"(١٨).

وفي ١٤ يونيو ١٨٠٠ في مارينجو، يبدي بونابرت قوته الجديدة في وجه الجيوش النمساوية .ومع أن المعركة كانت غير مؤاتية في البداية، إلاّ أنه يتم كسبها في النهاية بفضل عمل ديزيه الذي يلقى مصرعه في المعركة .وعندئذ تصبح سلطة القنصل الأول وطيدة بشكل حاسم.

وفي ذلك اليوم، تحدث دراما أخرى في مصر .ومن الأفضل هنا تتبع رواية الجبرتي، كاتب الأخبار المصري:

"وقعت نادرة عجيبة، وهو أن ساري عسكر كلهبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذي بداره بالأزبكية، فدخل عليه شخص حلبي وقصده، فأشار إليه بالرجوع وقال له مافيش وكررها فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضائها، فلمّا دنا منه مد إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد الآخر يده فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمني أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط إلى الأرض صارخاً، فصاح رفيقه المهندس، فذهب إليه وضربه أيضا ضربات وهرب"[19].

ويقضي كليبر نحبه بعد ذلك بوقت قصير متأثراً بجراحه .وبعد استجوابه وتعذيبه، يعترف سليمان الحلبي بعمله مبرراً إياه بالجهاد. وسوف يبين التحقيق أنه لم يكن له شركاء من خارج عدد من علماء الأزهر الذين كان قد أفصح لهم عن نواياه وحاولوا إثناءه عنها دون أن يقوموا مع ذلك بالوشاية به.

وسوف يخلف مينو كليبر وفقا لقاعدة الأقدمية .وسوف تتولى محكمة عسكرية محاكمة سليمان وإثبات التهمة الموجهة إليه، وهو إجراء سوف يثير دهشة الجبرتي[20]، في حين أن الفرنسيين، التزاماً منهم، دون شك، بالأعراف المحلية، سوف يحكمون بحرق يده وخوزقته .وفي ١٧ يونيو ١٨٠٠، سوف يشيع الجيش قائده في جنازة مهيبة ويشهد بعد ذلك خوزقة قاتله[21]

وسوف يقام حفل تأبيني مشترك لديزيه ولكليبر في الأول من فاندميير من العام التاسع (عيد الجمهورية، ٢٣ سبتمبر ١٨٠٠) في باريس، وسوف يتلو جارا في ذلك الحفل تأبينه للجنرالين.

وبعد استسلام القاهرة في عام ١٨٠١، سوف يتولى بيليار نقل رفات كليبر إلى فرنسا .والحال أن القنصل الأول والإمبراطور

بعد ذلك (نابوليون)، الذي من المؤكد أنه يشعر بالضغينة (تجاه كليبر)، سوف يترك جثمان كليبر راقداً في قصر إلف المطل على مارسيليا .وسوف يأمر نابوليون بالبحث عن يوميات كليبر لإعدامها، لكن داماس ينجح في إخفائها . والحال أن هذا الأخير هو الذي سوف يتمكن، في عام ١٨١٨، من الحصول من حكومة لويس الثامن عشر على تصريح بنقل رفات البطل الألزاسي إلى ستراسبورج، حيث سيتم دفنها في الكاتدرائية. وفي عام ١٨٣٨، في ظل لوي فيليب، سوف يقام النصب التذكاري الحالي وفي أواخر القرن سوف يصبح كليبر هو المرجع الأعظم للألزاسيين المتمسكين بالجمهورية الفرنسية.

أمَّا فيما يتعلق بسليمان الحلبي، فإن:

"الجراح لاري الذي كان قد أخذ جثته، ثم قام بتشريحها، قد سلمها لدى عودته من مصر إلى مجلس كلية الطب في باريس. وكما يمكن للمرء أن يرى، فإن علماء فراسة الدماغ الحديثين عندنا قد درسوا جمجمته، والواقع أن علامات الإجرام والتعصب الديني قد ظهرت جد واضحة عليها"[٢٢]!

وبعد عرضها على أجيال من طلبة الطب، توجد الآن رفات قاتل كليبر في متحف تاريخ الإنسان في باريس..

حواشي الفصل السادس

١- تخرج قيادة كليبر عن حدود هذا العمل المكرس للعلاقات بين كليبر وبونابرت .ونجد في **كليبر ومينو** لروسو (باريس، ١٩٠٠) مجموعة مختارة ممتازة من رسائل كليبر خلال تلك الفترة.

٢- روسو، ص ص ١٧٥- ١٧٦.

٣- إشارة إلى مناقشة برلمانية في مجلس الخمسمائة في ٢٩ أغسطس ١٧٩٩ حول تهمة "إرسال أربعين ألف فرنسي إلى صحراء بلاد العرب"، ج. ويت، **سقوط العريش**، القاهرة، ١٩٤٥، ص١٦١ . وسوف يأمر كليبر بنشر مقتطفات من المناقشة في **الكوربيه دو ليجيبت**، ٩ برومير من العام الثامن (٣١ أكتوبر ١٧٩٩).

٤- روسو، ص ١٧٦.

٥- على سبيل المثال، في عيد الجمهورية في الأول من فانديمير من العام الثامن (٢٣ سبتمبر ١٧٩٩): "لكن راياتكم، يارفاق السلاح البواسل، مكللة بأكاليل الغار، وما أكثر الأعمال التي تحتاج إلى إنجاز . وما أكثر الأمجاد التي تتطلب ثمناً . لحظة مثابرة أخرى، وأنتم مستعدون لبلوغ ونيل الإنجاز والمجد؛ لحظة أخرى، وسوف تمنحون العالم سلاماً دائماً .بعد أن حاربتموه" (روسو، ٥٩)

٦- انظر دراسة ويت التي أشرنا إليها أعلاه.

٧- انظر النص الكامل والتعليقات عليه في **كليبر في مصر**، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٨، الجزء٢، ص ص ٥١٥- ٥٣٢.

٨- رسالة إلى ديزيه وبوسيلج، بتاريخ ٢٠ نيفوز من العام الثامن (١٩ يناير ١٨٠٠): "لن أحدثكما عن حالة الشئون المالية . إنها من السوء بحيث إنني لا أتابعها من يوم ليوم، بل من هذه اللحظة إلى اللحظة التي تليها" (روسو، ص١٩٨).

٩- رسالة إلى بوسيلج، بتاريخ ١٥ فينتوز من العام الثامن (٦مارس ١٨٠٠).
١٠- رسالة إلى دوجا، بتاريخ ٥ بلوفيوز من العام الثامن (٢٥ يناير ١٨٠٠)، روسو، ص ص ٢٠٣ – ٢٠٤.
١١- رسالة إلى أوجوست داماس، بتاريخ ٢٥ بلوفيوز من العام الثامن (١٤ فبراير ١٨٠٠)، روسو، ص٢٢٢.
١٢- رسالة إلى دوجا، بتاريخ ٩ فينتوز من العام الثامن (٢٨ فبراير ١٨٠٠)، روسو، ص٢٢٨.
١٣- **المصدر السابق**، ص ص ٢٤٦- ٢٧٤.
١٤- أمر يومي بتاريخ ٧ بلوفيوز من العام الثامن (٢٧ يناير ١٨٠٠): "أيها الجنود! لو كنت قد استشرت في تكليفي بحمل العبء الذي خلفه لي الجنرال بونابرت، فإن من المؤكد أنني ماكنت لأقبل ذلك البتة، لأنني أشعر شعوراً بالغ القوة بأن قواي لا تتناسب البتة مع أهمية الموقع الذي أحتله، في ظروف جد صعبة، لكنكم تعرفون أنني لم يكن بوسعي الاختيار" (**المصدر السابق**، ص٢٠٥).
١٥- رسالة إلى رئيس المعهد المصري، بتاريخ ١ فريميير من العام الثامن (٢٢ نوفمبر ١٧٩٩)، **المصدر السابق**، ص١٢١.
١٦- رسالة من مينو إلى كليبر، بتاريخ ٣ بريريال من العام الثامن (٢٣ مايو ١٨٠٠). **المصدر السابق**، ص٢٩٩.
١٧- رسالة من كليبر إلى مينو، بتاريخ ٣ بريريال من العام الثامن. **المصدر السابق**، ص ص ٣٠١-٣٠٢.
١٨- **التاريخ العلمي**، المجلد٨، ص٢.
١٩- الجبرتي، **يوميات أحد أعيان القاهرة**، ترجمة جوزيف كوك، باريس، ١٩٧٩، ص٢٤٨.
٢٠- "قبضوا عليه وقرروه و لم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مكمخة بدم ساري عسكرهم وأميرهم، بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه

السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم وأطلقوا مصطفى أفندي البرصلي الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور، بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية" (**المصدر السابق**، ص٢٥٠).

٢١- يقدم متذمر **طبيب الحملة** لبلزاك الرواية التالية لذلك الحدث: "اغتيال كليبر على يد مصري جرى إعدامه بوضع خازوق في مؤخرته، وهو أسلوب الإعدام في ذلك البلد؛ لكن ذلك الأسلوب يسبب كثيراً من العذاب، مما دفع جندياً مشفقاً على المجرم إلى أن يقدم له قرعته، وما أن شرب المصري من الماء حتى قلب بصره بمسرة لا نهائية" . **الكوميديا الإنسانية**، مكتبة لابليّاد، باريس، المجلد ٩، ص٥٢٦.

٢٢- **التاريخ العلمي**، المجلد٨، ص ص ٤٠- ٤١.

الفصل السابع

كليبر وبونابرت

شخصية كليبر جد جذابة: فنزاهته العظيمة ومحبته للمجد التي يكبح غلواءها عزمٌ على توفير دماء جنوده، ليس لهما من هدف غير حماية الوطن .وهو صادق حين يؤكد:

"أما فيما يتعلق بي، فلا أهمية تذكر للمكان الذي يجب عليّ أن أحيا فيه أو أموت فيه شريطة أن أحيا لأجل مجد جيوشنا وأن أموت على نحو ماعشت"[١].

والشرف بالنسبة له قيمة جوهرية:

"إنني لم آت البتة إلى مصر لكي أكون ثروة .وقد تمكنت إلى الآن من احتقارها أينما كنت .على أنني لن أسمح أبداً مع ذلك بإحاطتي بأية شبهة" [٢].

وهذا الموقف "الجمهوري" الذي ربما كان شائعاً في بداية الثورة، إنما يصبح نادراً بشكل مطرد في عصر حكومة الإدارة، فتحول الجيش الثوري إلى جيش محترف يحيا على حساب البلدان المفتوحة قد أدي إلى هبوط للأخلاق العامة لكبار الضباط الذين يثرون على حساب البلد .والتباين واضح بالفعل بين كليبر الذي ظل فقيراً بعد حملات ألمانيا وفاتح إيطاليا الذي اغتنى من جراء فتحها .ويذكر نابوليون في سانت هيلانة:

"حيث إن كليبر كان قد تناول العشاء عندي مرتين أو ثلاث مرات لدى العودة من إيطاليا وحيث إنه كان بلا مال، فقد طلب إلى كافاريللي أن يحدثني في ذلك .وقد رد كافاريللي بأن من

الأفضل أن يتحدث هو بنفسه إليّ في ذلـــك؛ وبـأن مـــن المرجـــح أن الجنرال بونابرت الذي كان قد أرسل ملايـين كثـيرة إلى فرنسـا هـو رجل غني جداً وبأنه سوف يسعده أن يساعد كليـــبر.

"والواقع أن هذا الأخير قد تحدث إليّ في الأمـــر بعـد العشـاء، فقال لي إنه يسكن مع مـورو في شـايو، وأن لا مكافـأة هنـاك وأن حكومة الإدارة قد تركته في عوز .وعلــى خـلاف عـادتي، وجدتـني مضطراً إلى سـؤاله:

هل أنت بحاجة إلى مـال؟

فقال كليبر: أعترف لك بذلـك.

فقلت: حسناً، مادام عندي مال، فلن تفتقر إليـــه.

وأعطيته ألف لوي .فكتـب كليـبر إيصـالاً لم أشـأ رفضـه ثم مزقته بعد ذلـك"[٣].

ومن جهة أخـرى، فـإن المـال بالنسـبة لبونـابرت لم يكـن هدفاً في ذاتـه بـل مجـرد وسـيلة لتحقيـق طموحاتـه .وفي هـذه الحالة، فإنه يسعى إلى اسـتمالة كليـبر.

وكليبر ليس مجرد جندي .فهو رجل مـن أبنـاء زمـن التنويـر. وهو، في مصر، يقدر تقديراً عظيمـا صحبـة أعضـاء لجنـة العلـوم والفنون كما يقـدر جنـود الأسـلحة الفنيـة .وهكـذا يكتـب إلى بونابرت بشأن الرحيل عن الإسكندرية من جـانب سيسـيل وكونتيـه اللذين علاوة على عملها لأجل الجيـش:

"مستفيدين حتى من أوقـات فراغـهما، (....) كانـا يجريـان حول فنون وحرف البلد أبحاثـاً مليئـة بالاهتمامـات ورسـوماً جـد أخاذة. إنني لأشعر بأسف لا حد له علـى افتقـاد هذيـن الفنـانين، فكثيراً ماأسهما في إزالة التشوش مـن أفكـاري"[٤]

وكذلك، حول رحيل ضباط سـلاح المهندسـين، يتحـدث إلى كافاريللى على النحو التـالي:

"على أن هذا هو ما يؤلمني، فأنت تعرف أنني أحب كثيراً أن تحيط بي شبيبتك الرائعة"[٥]

وقد رأينا بالفعل الدور الذي لعبه كليبر في نشأة كتاب **وصف مصر.**

والممتلكات الوحيدة التي كانت لها قيمة بالنسبة له هي بعض الكتب والأسلحة النادرة[٦] . وهو يستفيد من إقامته في مصر لكي ينهي كتابة ذكرياته عن الفانديه ولكي يسجل ملاحظاته حول الناس والأماكن في مصر .وتشهد يومياته على بداية تأمل حول مكانة الثورة في تاريخ الإنسانية .وشأنه في ذلك شأن بونابرت، فإنه يستلهم **أطلال** فولني وفكر كوندورسيه؛[٧] وهو يدرج الحدث الجديد في سلسلة التطور التاريخي .وهكذا فإن العصر الوسيط هو أولاً فترة انحطاط للعقل البشري:

"إن أوروبا المحاصرة بين الطغيان الكهنوتي والاستبداد العسكري تتحين في الدم والدموع اللحظة التي تسمح لها فيها الأنوار الجديدة بأن تشهد ميلاداً جديداً للحرية وللإنسانية وللفضائل".

وتاريخ تلك الفترة إنما يتميز بالتعارض بين القوة المسلحة والقوة الدينية .والحروب الدينية، بإنهاكها لهاتين القوتين، إنما تسمح بالتطور البطيء للأنوار والتمدن بشكل عام كما تسمح بتهديد الاستبداد نفسه:

"لقد تهذبت الأخلاق من جراء الضعف الذي أصاب الأوهام والتي كانت قد حافظت على بشاعتها، كما تهذبت من جراء تأثير تلك الروح التجارية والصناعية المعادية للعنف وللقلاقل التي تحكم على الثروة بالاختفاء، وتهذبت كذلك عبر ترويج أوسع للأفكار الفلسفية عن المساواة والإنسانية، وتهذبت أخيراً عبر الأثر البطيء ولكن الأكيد للتقدم العام للتنوير".

وإلى هذا الحد لا تعتبر هذه الفكرة أصيلة. فهي مشتركة بين جميع الثوريين الذين يفكرون في السرعة التي فقدت بها المؤسسات "الإقطاعية" قواها في القرن الثامن عشر .والشيء المهم في منظور كليبر، هو أنه يرى أن الصفحة البيضاء التي بجدها الثورة قد أصبحت، بمرور الوقت، صفحة فاشلة لا بداية جديدة:

"بما أن الطموح يتأكد قبل التمكن سلفاً من التحكم فيه وتوجيهه، يحدث انكباب غير مدروس على الانطباعات . فالقوى كلها تتحرك دون أن يكون بوسع أية قوة منها أن توضح ما الذي تريده بالضبط . ومن هنا النجاحات التي لا ترجع إلاّ إلى الصدفة، والمشاريع التي تنتهي بسبب العجز عن مواصلتها وكل انعدامات الإيمان التي تجر العار على هذا العصر".

والنتيجة التي تترتب على ذلك إنما تشبه بشكل غريب حالة فرنسا في عهد حكومة الإدارة:

"آه! ما أكثر العادات التي ماتزال متباينة عن المبادئ التي جرى البدء باستعراضها وعن الحقوق السياسية التي يجري السعي إلى استردادها! لقد تفككت كل العُري، وكل السلطات غير لائقة وهيمنة اللياقة نفسها تبدو ضعيفة".

وفي وضع كهذا، إلام تؤول الدولة؟ هناك فرضان ممكنان. الأول هو الانحلال الناشئ عن ضعف السلطة والذي يؤدي إلى الغزو الأجنبي وإلى الفتح من جانب الجيران:

"وعندئذ تنتقل الشعوب إلى حالة أسوأ من الحالة التي كانت عليها عند الخروج من البربرية . فقوانين الفاتح تناضل ضد قوانين الشعب المفتوح .وعادات الأول ضد عادات الآخر، وأخلاقه ضد أخلاقه، وديانته ضد ديانته، وتختلط لغته بلهجة أجنبية .وتلك فوضى يصعب التنبؤ بما سوف تنتهي إليه، وهي فوضى لا تنجلي إلاّ بعد مرور عدة قرون، وتبقي منها آثار لا تتمكن أسعد

الأحداث من محوها أبداً بالكـــامل".

ولا يبدو أن هذه الفقرة تخص فرنسا الثوريـــة بشـــكل مباشـــر. فهي تخصٍ بالأحرى أوروبا فيٍ بداية العصــر الوســيط، وربمـــا تخــص ايرلندا، إلاّ أنها ربما تخص أيضاً مصر الخاضعـــة لســيطرة الفرنســيين. ونجد هنا من جديد عداوة كليبر العميقة لروح الفتــح، مؤسســة هــذه المرة على فلسفة للتـــاريخ.

والفرض الثاني، الذي يجري تناولـــه باختصـــار، هــو الانحــلال الناشئ عن نفاد صبر الرعايـــا:

"إذا ماتمكن نفاد صبر الرعايا من كسر نـــير تعبــوا مـــن التـــأوه تحته، فإن الأمة سوف تتقدم بهذه الدرجة أو تلــك مـــن الســرعة نحـــو الفوضى عبر بحار من الدمـــاء"

فهل يوجد حـــل؟

"لا يتطلب الأمر غير رجلٍ واحد لكيٍ يتغـــير شـــكل الدولـــة، وهذا الرجل لا ينعدم وجوده أبداً تقريبـــا؛ وأولئـــك الذيـــن يحكمـــون هم الذين لا يتمكنون من اكتشـــافه".

فمن هو هذا الرجـــل؟

لا يمكن أن يكون كليبر نفسه. فرفضـــه للقيـــادة العليـــا يشـــير بوضوح إلى رغبته في أن لا يكون الرجـــــل الأول.

وهو لا يمكن أن يكون مدنيـــــاً . إن خيبـــات أمـــل كليـــبر في الفانديه قد حسمت خلافه مع اليعاقبة. وهو لـــن يلتقـــط "أبـــداً مـــن الوحل شارة اليعاقبة الدمويـــة".

وهـــو عميـــق الاحتقـــار لسياســـيي حكومـــة الإدارة الذيـــن يسميهم، كبونابرت، بـــ "المحامين" (الآفوكـــات).

ومن ثم فالرجل المقصـــــود هـــو عســـكري .وبالاشـــتراك مـــع مـــورو وكافـــاريللي في شـــايو، كـــان يحلـــم بإصلاحـــات عميقـــة للدولة، لكنه لم يفعـــل شـــيئاً وإن كـــان قـــد اســـتثار ريبـــة مـــبررة

من جانب حكومة الإدارة.

ومن الواضح أن الرجل المقصود هو بونابرت، فاتح إيطاليا. فقد رأى فيه، شأنه في ذلك شأن جانب كبير من الكادر الجمهوري، المنقذ الممكن.

ويتحدث نابوليون في سانت هيلانة عن اقتراح فعلي من جانب كليبر باستيلاء على السلطة .ففي حديث مع برتران، بتاريخ ٣١ أغسطس ١٨١٦، يتحدث عن تلك الواقعة:

"قبل إعلان الإمبراطورية، كان كليبر قد اقترح وضعي على رأس الحكومة، وقد قال لي: معك ومورو وأنا، سوف نطرد هؤلاء الأوغاد، لا تنزعج.

"لكنني لم أكن أؤمن بأن الأحداث ناضجة لذلك ومن جهة أخرى، فقد كنت جمهورياً صادق الإيمان .و لم أكن أعرف جيداً إلى أي مدى يريدون السير، ولعلهم هم أنفسهم لم يكونوا يعرفون كذلك، و كان آخرون أغبياء أو عملاء للبوربون"[٨].

وفي يناير ١٨١٩، يذكر بشكل محدد:

" لم يكن (كليبر) يحب الثورة. ولدى العودة من إيطاليا، كان يريد بالاشتراك مع كافاريللي أن يصعد على رأس السلطة وهو لم ير في ذلك غير وسيلة للظهور وللحصول على النسوان والمال. و كان معه سييس .وقد قال لي: "سوف أعطيك جيش الراين . ومن جهة أخرى، سوف يكون بوسعك أن تفعل ما يحلو لك؛ معك جيش إيطاليا، فما الذي تخشى منه؟"[٩].

فما هو الصحيح في هذه المزاعم؟ إن عداوة كليبر لحكومة الإدارة مؤكدة . وقد رأينا موقفه خلال ١٨ فروكتيدور . وليس بوسع بونابرت إلا أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار في حساباته السياسية، لكن الأحداث لم تكن قد نضجت بعد لاستيلاء على السلطة . والإشارة إلى سييس وإلى كافاريللي إنما تحيل إلى أوساط

الايديولوجيين وإلى من سوف يصبحون "البرومـيريين" المسـئولين عـن صعود بونابرت على رأس السـلطة.

وبونابرت يرتاب في انعدام رؤية بعيـدة المـدى لـدى كليـبر، ومن المرجح أنه لم يخطئ في ذلك. وعلـى أيـة حـال، ففـي بدايـة الحملـة، كـانت مقترحـات الألزاسـي واضحـة. وفي ١٩ يوليـو ١٧٩٨، في الإسكندرية، تروج شائعات: لقد حـدث انقـلاب جديـد في فرنسا. وعندئذ يكتب كليبر إلى بونابرت الـذي يعتقـد أنـه أدرى بالموضوع:

"لقد قررت، قائدي الجنرال، أن أتبعك حيثما كنـت، وسـوف أتبعك أيضاً في فرنسا؛ ولن أنفذ البتة بعدُ أوامـر صـادرة مـن أحـد غيرك، ولا أريد أن أكون على اتصال مباشـر بالحكومـة"(١٠).

وهكذا فبالنسبة لكليبر، وهو بعيـد عـن أن يكـون وحيـداً في ذلك، فإن بونابرت يمثل عندئذ حل مشكلة أزمة الحكم الـتي تمـر بهـا فرنسا.

ثم تحـدث المواجهـة الأولى بـين الرجلـين حـول إدارة الإسكندرية. وتنجم المفارقة من أن كليبر هـو في آن واحـد لا يحـب هذا المنصب ولا يحتمل في الوقت نفسه وصاية القائد العـام الشـديدة. وفي سانت هيلانة، سوف ينصفه نـابوليون:

"لقد كنت راضياً دائماً عن كليـبر في مصـر، ولم يفلـت منـه قط شيء أمامي. وكثيراً ما كان يطمح إلى كلمـة ثنـاء مـني. وقـد وجدني، منذ نـزوله (إلى الإسـكندرية) جـد مختلـف عـن جميـع الجنرالات الآخرين الذين عرفـهم. وقـد تركـت كليـبر في قيـادة الإسكندرية. وكان القائد العام مسـئولاً عـن كـل شـيء ويصـدر الأوامر للجميـع ويدخل في كل التفـاصيل. وكـان يقـول أحيانـاً: "إنك تفهم الأمر على هذا النحـو، لكنني أفهمه علـى نحـو آخـر. يجب عمـل كذا وكـذا".

"وربما أحس كليبر بشيء من الجـــرح مـــن جـــراء مثــل هـــذا الأسلوب في القيادة، فهو أسلوب لا يترك لـــه غـــير دور المـــرءوس . ثم إنني كنت شاباً، وأظن إنني ربما كنت مسرفاً في غـــــروري"[11].

ويرجع أصل الأزمة الثانية إلى حملة الشام. وهـــي في هـــذه المـــرة ليست سافرة، لكن بونـــابرت لا يمكنـــه إلاّ أن يكـــون مدركـــاً لأثـــر انتقادات كليبر غير المؤاتية على انضباط الجيـــش .والجميـــع يعرفونهـــا، بل إن الإنجليز يدرجونهـــا في حســاباتهم . ودون أن يـــدرك ذلـــك، يتجاوز كليبر حدود الصراحة المعتادة في جيوش الثـــورة . وفي ســـانت هيلانة، لن يدلي نابوليون إلاّ بتلميحات قليلة عنـــها:

"في عكا، لم يشأ كليبر الحضور لرؤيـــة الثغـــرة ولا الإدلاء برأيـــه لي حتى يتسنى له التمكن من توجيه النقد إذا مافشـــلت المحاولـــة .ومـــع ذلك فقد وجدت نفسي مضطراً إلى إرسال الأمر إليـــه ثـــلاث مـــرات بعدم شن الهجوم، فقد كان يريد الزحف علـــى رأس الجنـــود"[12].

وإذا كان نابوليون يسكت نسبياً عن هذه الأزمـــة، فمـــا ذلـــك إلاّ لأنه يتمسك بأسطورة عكا التي تشـــكل نقطـــة تحـــول في حياتـــه. والحديث عن انتقـــادات كليـــبر، يجـــر إلى التعريـــض بأخطائـــه، أو بالأحرى، بالنتيجة العبثية للرهانات الخطرة التي تميز تلـــك الحملـــة.

وتنبع الأزمة الثالثة في علاقاتهما مـــن رحيـــل بونـــابرت الســـري ومن هجوم كليبر علـــى تركـــة ســـلفه .وفي ٣١ أغســـطس ١٨١٦، يرى برتران أن كليبر قد عومل كمـــلازم .وبشـــكل غـــير مقصـــود، يستعيد هذا المحارب القديم في مصر عين المصطلح الـــذي كـــان كليـــبر قد استخدمه لتعريف مسلك بونابرت .ويـــرد نـــابوليون:

"لم يكن بوسعي إفشاء سري لكليبر الذي كان مـــن المحتمـــل أن يثير مصاعب . وكان هذا الرحيل علـــى أكـــبر جـــانب مـــن الأهميـــة بالنسبة لي . وأعتقد أن دافع استياء كليبر الرئيســـي هـــو أنـــني حرمتـــه من ثلاثمائة من جنود الطليعة[13] وهـــو أمـــر كـــان يشـــكل بـــالفعل

خسارة له، وكان عليّ حمايتهم، ولا شك أن ٣٠٠ رجل يمكن الاعتماد عليهم وينتمون إلى الصفوة كانوا شيئاً بالغ الأهمية . ولو كان كليبر قد عاد إلى فرنسا، فلربما سبب لي حرجاً، ليس بعد صلاح آميان، فآنذاك كنت على جانب كبير من العظمة، وما كان لذلك أن يؤذيني، وعندما بلغني خبر استسلامه، فإن ذلك لم يحزنني كثيراً، فعودته كان من الممكن أن تكون جد مفيدة لي .ولو كان قد وصل في مايو، لأحسنت استقباله .لقد دبرت حركة مارينجو. ومجيء ٢٥٠٠٠ رجل من الصفوة من شأنه أن يكون قوة حاسمة. ولم تكن مصر تمثل بعد بالنسبة لي شيئا بالقياس إلى وجود فرنسا السياسي . ولو كان ذلك قد حدث بعد ذلك، لاختلف الأمر كثيراً"(١٤).

وهكذا نرى أن النزاع بين الرجلين لا يستند إلى مواجع مادية ربما باستثناء عكا، لكن معركة أبوقير البرية تعوض هذه المواجع إلى حد بعيد. فالمشكلة في مكان آخر، فهي تتصل بالجمهورية وبالوطن.

لقد رأى كليبر في بونابرت المنقذ الممكن، الرجل العظيم المنتظر. وهو في هذا إنما يمثل جانباً كبيراً من الكادر السياسي والعسكري للثورة الآخذة بالانتهاء . لكنه، عبر احتكاكه ببونابرت في مصر، سوف يدرك، أسرع بكثير من الآخرين، أن قسوة البطل نفسها، بدلاً من أن تؤدي إلى الاستقرار جد المنشود، إنما تنذر على العكس من ذلك بأن تجر إلى مغامرات أخطر بكثير جداً على الوطن .وتجربته المصرية تستشرف التطور السياسي للوسط الذي انبثق منه .وسوف ينتظر البروميريون عدة سنوات قبل أن يكتشفوا الحقيقة المروعة.

ويوميات كليبر هي شهادة غير عادية على الفتنة التي يمارسها الفاتح الشاب على كليبر الأكبر منه سناً، ويمكن رصد الانزعاج المتزايد لدى هذا الأخير رصداً واضحاً:

وهكذا، ففي طولون، يضع نفسه في موضع المراقب:

"إنني لا أعرفه بعد البتة .لقد ظهر فجأة تماماً على المسرح، وتمكن من إحاطة نفسه بسرعة بكثير من الهيبة، وكان صعوده سريعاً إلى حد بعيد بحيث إنني من المسافة التي وجدت نفسي عندها، كان من المستحيل عليَّ أن أرصده وأن أتابعه .ومن ثم ففي وسط الأحداث التي تتهيأ يجب عليَّ فحصه: هناك، عن قرب أكثر، سوف أجتهد في معرفة سماته من خلال الأساليب والوسائل التي سوف يستخدمها لكي يصل إلى النتائج الكبرى التي يطمح إليها، كما سوف أجتهد في معرفة شخصيته وتركيبه من خلال الحكايات والنوادر التي لن يتخلف عن روايتها في ظروف غير عادية بالمرة".

والشخصية السياسية المثالية بالنسبة لكليبر هي واشنطون، فعندما سأله كافاريللي عن النموذج السياسي المرغوب فيه أكثر من سواه بالنسبة لفرنسا، فإن هذا الاسم هو الاسم الذي يقدمه، محدداً العمل الذي يجب الاضطلاع به:

"ذلك لأن واشنطون قد استهل وأنجز مشروعه المجيد ولأنه اعتمد في نجاح هذا المشروع على الوسائل التي تتناسب معه، ولأنه عندما حصل على هذا النجاح، لم يفقده ذلك رشده البتة: وأخيراً لأن هذا المشروع كان جديراً بالثناء أكان ذلك من النواحي السياسية أم من نواحي الفلسفة، فما كان يهدف إليه ليس هو الفتوحات وأعمال النهب والتدمير، بل استقلال أمته وخيرها".

ومن جهة أخرى، فإن كليبر يشتبه في أن بونابرت هو الذي حرض كافاريللي على توجيه هذا السؤل سعياً إلى استطلاع نواياه بالنسبة للمستقبل .والواقع أن الألزاسي يدرك بسرعة أن بونابرت هو شخص آخر تماما قياساً إلى المنقذ المنتظر .فهو خطر على الوطن، لأنه "يلعب مع التاريخ"، أي "يلعب بأرواح البشر وبالمصائر العامة والخاصة، وبخير وهناء الوطن".

ومنذ تلك اللحظة لا يرى كليبر في بونابرت غير"طموح مفرط ولا يتناسب البتة مع معارفه ومواهبه".

وبعد ١٨ بروميير، فإن فرنسا"ما كان يمكن إخضاعها على يد مهرج أحقر من هذا المهرج".

أما الدستور فإنه" ليس غير قناع خبيث، رأى الطاغية أن من المناسب التستر به مؤقتاً وسوف يلقيه من النافذة، إن لم يجر إلقاؤه هو نفسه منها، قبل أن يصبح غير مجد بالنسبة له".

وتنبع دراما كليبر العميقة من إدراكه أن استبداداً جديداً ينشأ وأن حروب الفتح والنهب سوف يجري استئنافها، وأن الحرية لم تعد لها قائمة وأن الوطن سوف تجري التضحية به لحساب أطماع رجل واحد وأنه لا يمكن عمل شيء لمواجهة ذلك مادام أن العجز عن إقامة جمهورية حقيقية والعثور على واشنطون فرنسي هو الذي فتح الطريق أمام بونابرت. الإرهاب الدموي والفوضوي للنظام اليعقوبي أو استبداد بونابرت الجديد، تلك هي المعضلة التي يجد كليبر نفسه أمامها .وعندئذ فإن الاعتزال، والموت في الروح، إنما يبدو له، ليس حلاً، بل الموقف الوحيد الذي يمكن اتخاذه.

ونابوليون يعرف جيداً ما يمثله كليبر في مغامرته الشخصية: إدانة معنوية لروح الفتح والسلطة . وفي سانت هيلانة، سوف يتهجم بشراسة، ليس على مسلك كليبر (١٥)، بل على شخصيته نفسها . إذ يجب عليه أن يتسف بالكامل سمعة البطل الألزاسي:

"إنه كسول، سمح لنفسه بأن يكون إمعة لداماس الحقير، محسوبه. وكان لا يكف عن الإشادة بالقوات الألمانية ولم يكن يفكر إلاً في ملذاته.

"في خيمتي، عندما كنت أتحدث عن باريس، كثيراً ما كنت أرى وجهه يتغير . لم يكن يفكر إلاً في نسوان وملذات العاصمة. بينما كان ديزيه يعشق المجد لأجل المجد". (١٦)

بل إنه يهاجم وطنيتـــه:

"هناك فرق كبـــير بـــين كليـــبر وديزيـــه .لقـــد كـــان قلـــب ديزيه فرنسياً. وكـــان يحـــب المجـــد والحـــرب. وقـــد ســـاد حســـن التفاهم بيننا: كنا معاً في الكليـــة الحربيـــة. كنـــا نحـــب المجـــد، كنـــا نحب الثورة. أما كليبر فلم يكـــن فرنســـياً، لقـــد كـــان ألمانيـــاً. ولم يكـــن يحـــب ســـوى النســـوان والمـــال والمتعـــة .لم يكـــن يحـــب الثـــورة" .[17]

ولو كان كليبر قد عاد من مصـــر؟

"الجنرال العظيم ليس شيئاً عادياً؛ ومـــن بـــين جميـــع جـــنرالات الثورة لا أعرف أحداً كان بوسعه أن يمضـــي إلي مـــا أبعـــد إلاّ ديزيـــه وهوش. أما كليبر فقد كان يحب الملذات وقد جر علـــى نفســـه العـــار عندما أراد الجلاء عن مصر .قيل إنني كنت أخافه: إيـــه !، يـــا الهـــي، كان بوسعي أن أغدق عليه المال، وكان سيبـــوس يـــدي" .[18]

ومن الواضح تمامـــاً أن كـــل هـــذه التـــهجمات عاريـــة مـــن الأساس. لكنها تكشـــف لنـــا إلى أي حـــد كـــانت العلاقـــات بـــين الرجلين قد انتهت إلى توتر شديد. وربمـــا كـــانت شراســـة نـــابوليون ضد شبح كليبر هي أفضل شهادة علـــى نـــزاهة الجـــنرال الألزاســـي الأخلاقية.

حواشي الفصل السابع

١- رسالة إلى بونـــابرت، بتـــاريخ ٦ فروكتيـــدور مـــن العـــام الســـادس (٢٣ أغســطس ١٧٩٨).

٢- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ٢١ فروكتيدور من العـــام الســـادس (٧ ســـبتمبر ١٧٩٨).

٣- برتران، **كراسات سانت هيلانة**، باريس، ١٩٥٩، المجلد ٢، ص ٢٦٩.

٤- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ١٧ فروكتيدور مـــن العـــام الســـادس (٣ســـبتمبر ١٧٩٨).

٥- رسالة إلى كافاريللي، بتاريخ ١٢ بلوفيـــوز مـــن العـــام الســـابع (٣١ ينـــاير ١٧٩٩).

٦- خلال حملة الشام، يطلب إلى مينو المحافظة علـــى أشـــيائه في القـــاهرة: "إنهـــا تتضمن أهم ما أملك، أي أوراقي وبعض الأســـلحة الـــتي لهـــا قيمـــة كـــبرى عندي"(١٧ فينتوز من العام الثامن (٧ مـــارس ١٧٩٩).

٧- وهكذا فإن بونابرت لدى عودته من إيطاليا لتقديم معـــاهدة كـــامبو-فرميـــو، يلقي الخطبة التاليـــة:

"أيها المواطنون، إن الشعب الفرنسي لكي يصبح حراً، كـــان عليـــه أن يقـــاتل الملوك.

ولكي يحصل على دستور قائم على العقل، كان عليه أن يقـــهر ثمانيـــة عـــشر قرناً من الأباطيل والأوهـــام.

ودستور العام الثالث وأنتم، قد أنتصرتم على جميع هـــذه العقبـــات.

إن الدين والإقطاع والملكية قد حكمت أوروبا على التـــوالي، منـــذ عشـــرين قرناً؛ لكن السلم الذي حققتموه للتو، إنما يدشن عصر الحكومـــات النيابيـــة.

لقد نجحتم في تنظيم الأمة العظمى الـــتي لا تحـــد أراضيـــها الواســـعة ســـوى الحدود التي فرضتها عليها الطبيعة نفســـها.

كما أنكم فعلتم ما هو أكثر مـــن ذلـــك، إن أجمـــل جزءيـــن في أوروبـــا،

والشهيرين منذ الأزمنة الغابرة بالفنون والعلـــوم وعظمـــاء الرجـــال واللذيـــن كانا مهداً لهم، إنما يشهدان، تحدوهما أعظم الآمـــال، خـــروج نبـــوغ الحريـــة من قبر أسلافهم.

إنهما قاعدتان سوف تضع المقادير عليهما أمتين قويتـــين.

(...) والسلم يكفل الحرية ورفاه ومجد الجمهوريـــة.

وعندما يستند رفاه الشعب الفرنسي على أفضـــل القوانـــين الأساسـية، فـــإن أوروبا بأسرها سوف تصبح حرة"(تيير، **تاريخ الثورة الفرنســـية**، بـــاريس، ١٨٣٦، المجلـــد ٩، ص ص ٣٤٧ –٣٤٨).

ونبوغ الحرية هو الشخصية المحورية في عمـــل فولـــني، **الأطـــلال** (١٧٩١). وهو يرمز إلى تاريخ التقدم منـــذ نشـــأة البشـــرية ويبشـــر بتعميـــم نمـــوذج الإنسان الجديد على العالم كله، وهو تعميـــم دشـــنته الثـــورة الفرنســـية.وفي ذلك الزمن، كان بونابرت متأثراً تأثراً عميقـــاً بفكـــر فولـــني. حـــول هـــذا الموضوع، أنظر كتابي، **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية علـــى مصـــر**.

٨- برتران، المجلـــد ١، ص ١٥٥.

٩- **المصدر السابق**، المجلـــد ٢، ص ٢٢٣.

١٠- رســـالة إلى بونـــابرت، بتـــاريخ ١ ثـــيرميدور مـــن العـــام الســـادس (١٩ يوليو١٧٩٨).

١١- برتران، المجلـــد ١، ص ١١٥.

١٢- جورجو، **سانت هيلانـــة، يوميـــات لم يســـبق نشـــرها ١٨١٥-١٨١٨**، باريس، ١٨٩٩، المجلد ٢، ص ١٨٥ .رأينـــا أن كليـــبر أدلى بـــالفعل برأيـــه حول الثغرة.

١٣- قوة جنود الطليعة التي أنشئت خلال حملة إيطاليا تشـــكل حـــرس واحتيـــاطي القائد العام .وهي صورة مسبقة للحرس الإمـــبراطوري .واســـتخدامها مـــن أجل الاعداد لانقلاب إنما يبدو هنا واضحـــاً.

١٤- برتران، المجلـــد ١، ص ص ١١٤ –١١٥.

١٥- لاس كاز، **مذكرات سانت هيلانـــة**، مكتبـــة لابليـــاد، بـــاريس، ١٩٥٦،

المجلد ١، ص ١١٠٦: "لم يتردد في قـــول إن كليـــبر كـــان أفضـــل ضبـــاط جيشه، بعد ديزيه، (...) وقال نابوليون إنه كان يعتـــبر بوجـــه عـــام، حـــتى ذلك الحين، غير ممتثل للأوامر؛ إلا أنه لم يسمح قط لشـــيء مـــن ذلـــك بـــأن يظهر أمام القائد العام الشاب .وقال الامبراطور إن هذا المســـلك قـــد أدهـــش كثيراً ضباط هيئة الأركان الذين اعتادوا علـــى مســـلك مختلـــف تمامـــاً مـــن جانب كليبر".

١٦- جورجو، المجلـــد ٢، ص ١٨٥.

١٧- برتران، المجلـــد ٢، ص ٢٢٣.

١٨- جورجو، المجلد ٢، ص ٤٢٣.

حول موت هوش، أبدى تيير الملاحظة التاليـــة:"مـــن الأفضـــل دائمـــاً لمجـــد هوش وكليبر وديزيه أنهم لم يصبحوا ماريشالات . فما يشـــرفهم أنهـــم مـــاتوا جنوداً وأحراراً، دون أن ينتهوا . مثـــل مـــورو، إلى البحـــث عـــن مـــلاذ في الجيوش الأجنبية"(المجلـــد ٩، ص ٣٠٢).

والواقع أن من المحتمل أنه لو كان كليبر قد عاش وعـــاد مـــن مصـــر لعـــرف مصيراً كمصير مورو الذي كان على ارتباط وثيـــق بـــه.

المصادر والمراجع بحسب ترتيب الإحالة إليها في الكتاب:

1- Michelet: *Histoire du xix seicle,* tome I, *Directoire, Origines des Bonaparte,* Paris, 1875.

2- Ernouf: *Le General Kleber,* Paris, 1867.

3- Pajol: *Kleber, sa vie, sa correspondance,* Paris, 1877.

4- Garcot: *Kleber,* Paris, 1936.

5- Lucas-Dubreton: *Kleber* ,Paris, 1937.

6- *Kleber , fils d'Alsace, Hommage collectif à l'occasion du 2e centenaire,* Paris, 1952.

7- Lubert D'Hericourt: *Vie du general Kleber,* Paris, 1801.

8- Garat : *Eloge funèbre des generaux Kleber et Desaix prononcé le I er vendemiaire an IX, à la place des Victoires,* Paris, Brumaire an IX.

9- Jomini: *Histoire Critique et Militaire des guerres de la Revolution,* Bruxelles, 1840, tome II.

10- G. Lefebvre: *La France sous le Directiore,* Paris, 1977.

11- Larousse: *Grand Dictionnaire Univesel du XIX siecle* , t. IX, 2e partie.

12- H. Laurens: *Origines intellectuelles de L'Expedition d'Egypte, L'orientalisme islamisant en France (1698-1798)* Edition Isis, Istanbul-Paris, 1987.

13- A. C. Thibaudeau: *Mémoires sur la Convention et le Directoire,* Paris, 1824, II.

14- M. Dumas: *Souvenirs,* Paris, 1839, III.

15- *Correspondance inédite de Napoleon Bonaparte avec les cours etrangères, les princes, les ministres et les generaux francais et étrangers,* Paris, Panckouke, 1819,V.

16- A. Raucroix: *Feuilles d' Hisroire*, Paris, 1911,VI.

17- A. Sorel: *Bonaparte et Hoche en 1797*, Paris, 1896.

18- A. Sorel: *Bonaparte et le Directoire*, tome V de *l'Europe et la Révolution francaise.*

19- R. Garnier: *Lazare Hoch ou l'honneur des armes*, Paris, Payot, 1986.

20- J. R. Surateau: *Le Directoire, points de vue et interpretations d'après des travaux recents (Annales Historiques de la Revolution francaise*,1976).

21- *La Correspondance de Napoleon Ier*, Paris, 1858-1870, 32 vol.

22- *L'Histoire scientifique et militaire de l'Expédition fracaise en Egypte*, Paris, 1830- 1836, 10 vol.

23- C. la Jonquière: *L'Expedition d' Egypte*, Paris, 1899-1907, 5 vol.

24- *Kleber en Egypte*, le Caire, IFAO, 1988.

25- A. V. Arnault: *Souvenirs d'un sexagénaire*, Paris, 1833, tome IV.

٢٦- محمد عبدالحميد الحناوي: الإسكندرية في عهد الحملة الفرنسية، مخطوط، جامعة المنيا، ١٩٨٥.

٢٧- عبدالرحمن الجبرتي: تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، ليدن، ١٩٧٥.

28- Jabarti: *journal d'un notable du Caire durant L'expéditon francaise*, Paris, 1979.

29- J. Godechot: *La Grande Nation*. 2e éd. Paris, 1983.

30- Baguenier- Desormeaux (H), *kleber en Vendée* (1793- 1794), Paris, 1907.

31- Abdul Karim Rafeq: *The province of Damascus*, Beyrouth, 1966.

32- Ammon Cohen: *Palestine in the 18 th century*, Jérusalem, 1973.

33- Moshe Ma'oz (ed.): *Studies on Palestine during the Ottoman Period*, Jérusalem, 1975.

34- *Revue d'Egypte*, 1895 II.

35- Bernoyer: *Avec Bonaparte en Egypte et en Syrie*, Les Presses francaises, Abbeville, 1976.

36- P. Martin: *Histoire de l'Expédition francaise en Egypte*, Paris, 1815 II.

37- *Mémoires et correspondance politique et militaire du prince Eugéne*, Paris, 1858, I.

38- V. Denon: *Voyage dans La Basse et haute Egypte*, Paris, 1803.

39- Larevellière- lépeaux: *Memoires*, Paris. S. d. (1895?). II.

40- *Bulletin de L'institut d'Egypte*, 23.

41- Madame de Staél: *Considerations sur La Révolution francaise*, Paris, 1983.

42- Stendhal: *Vie de Napoléon*, Lausanne.

43- Chateaubriand: *Mémoires d'Outre-tombe.*

44- Rousseau: *Kléber et Menou*, Paris, 1900.

45- G. Wiet: *La Chute d'El Arich*, Le Caire, 1945.

46- *Courrier de L'Egypte*, Le 9 brumaire an VIII.

47- Balzac: *La Comédie humaine*, Bibliothéque de la Pléiade, Paris, 1978,t. IX.

48- Bertrand: *Cahiers de Sainte- Hélène*, Paris, 1959.

49- Thiers: *Histoire de La Révolution francaise*, Paris, 1836, IX.

50- Volney: *Les Ruines.* Paris, 1791.

51- Gourgaud: *Sainte – Hélène. Journal inédit 1815- 1818*, Paris, 1899,II.

52- Las Cases: *Mémorial de Sainte- Hélène*, Bibliothèque de La pléiade, Paris, 1956,I.

ملحـــــق

حوار مع هنري لورنس أجرته كاترين فارحي
(الأهرام إبدو ٢٧ مارس- ٢ أبريل ١٩٩٦)

- ظهر كتابك **الحملة الفرنسية في مصر- بونـــابرت والإســـلام** في ترجمة عربية .فما الذي يمكن أن تقدمه هـــذه الترجمـــة؟
- إن كتـــابي يســـتند إلى التحـــري الأكـــثر تماســـكاً للمصـــادر الفرنسية للحملة، كما للمصادر العربية، الأمـــر الـــذي يســـمح بتقديم جانبي الواقع المصري .كما أنني قـــد ذكّـــرت المصريـــين في سياق عملي بعـــدد مـــن أبطـــالهم الذيـــن نســـوهم هـــم أنفسهم...
- ما هي، في رأيك، مكانة الحملة الفرنســـية علـــى مصـــر بـــين الاحتفال بالذكرى المئوية الثانيـــة للثـــورة الفرنســـية وذكـــرى مرور قرنين على الملحمة النابوليونيـــة ؟
- إن الثورة هي تحرر شعب يعتبر نفسه نموذجـــاً يجـــب أن يحـــذو حذوه كل البشر والملحمة النابوليونيـــة هـــي مغـــامرة فرديـــة لرجل يريد تجاوز الحدود المشتركة بين البشر .أمـــا حملـــة مصـــر فهي المفصلة بين الاثنتين. وقد حاولت أن أوضـــح مـــا حـــدث بالفعل، لأن التاريخ هو حاجة إلى المعرفـــة، وكـــان علـــيّ أن أنظر للحدث من موقع الفرنسيين كما مـــن موقـــع المصريـــين، ومن موقع العثمانيين كما من موقع الإنجلـــيز.
- كيف حدث أن الثورة التي بدأت بإعلان حقوق الإنســـان قـــد انتهت بالاســـتعمار؟
- الثورة الفرنسية ظاهرة مركبة .فهي تعبير عـــن مصـــالح مـــادية مختلفة، وهي تسعى إلى أن تكون عالميـــة، ومـــن ثم إلى أن تمتـــد

إلى كل البشرية، مجازفة بذلك بتنميط هذه الأخيرة .وهي في ذلك بداية الحداثة، الأمر الذي ينتقده الفيلسوف بنيامين كونستان، في كتابه **عن روح الفتح والاغتصاب** والذي يذهب إلى أن الرغبة في التنميط هي علامة الاستبداد الحديث .وهو يرى أن الشعوب كانت ضحية لنابوليون، من جراء حلمه البطولي كما من جراء رغبته في التنميط، وضحية لامبريالية تمتد إلى أوروبا كما تمتد إلى بقية العالم. ومع ذلك، فإن استعادة الذكرى النابوليونية لا تعني الرغبة في استعادة الإمبراطورية العظمى.

- هل تعني أن كتابك يهدف إلى توضيح الانتقال من نظرية حقوق الإنسان إلى الاستعمار؟
- أجل، لقد أردت أن أوضح كيف أن ثورة بدأت بإعلان حقوق الإنسان قد انتهت إلى الاستعمار.
- مترجمك، بشير السباعي، يرصد في كتابك تعاطفاً صريحاً مع شخصية كليبر.
- لقد تمحور الحديث عن حملة مصر بشكل مبالغ فيه حول شخصية بونابرت .ومن المؤكد أن كليبر هو الذي صفى الحملة، لكنه في الوقت نفسه هو الذي نظم مكاسبها.
- هل كليبر، في رأيك، بطل منسي أم وطني منزعج؟
- هو هذا وذاك .فكليبر هو عين رمز الثورة التي تنتهي في الحزن، وهو ذلك الوطني الفرنسي الأكثر انزعاجاً من المصير الذي ينتظر الوطن مما من المصير الذي ينتظر الإمبراطورية .وهو ثوري ترعبه الفكرة التي سوف يقدمها بونابرت عن الثورة، وهو يرى فيه ذلك الرجل الذي سوف يخون الوطن لأجل مصلحة وهمية .ونحن نجد هذا الحوار الشهير المسجل في يوميات كليبر:

"بونابرت :أنا الذي ألعب مع التـــاريخ،
كليبر: لا يمكن اللعب مع التــاريخ، فذلـــك يعـــني التضحيـــة بالإمة لحساب حلم فـــردي ".

تلك في الواقع صورة ثورة تنتهي في التحـــرر مـــن الأوهـــام. ومن الواضح أن حملة مصر هـــي نهايـــة الثـــورة .لكنـــها إن كانت بداية التحرر من الأوهام، فإنها، بوجه خـــاص، بدايـــة مغامرة بونابرت الشخصية التي سوف تُســـقط الثـــورة علـــى العالم .ومساهمتها تمر بتصفيتها:إن كليبر بموافقته علـــى جـــلاء الحملة إنما ينقذها للتاريخ إذ يخلق هذا الأثـــر الضخـــم الـــذي يحمل عنوان **وصف مصـــر**.

- -هل فتحت الحملة مصر على العــــالم الحديـــث كمـــا يحلـــو للبعض القول غالبـــاً؟
- – على المستوى الجيوبوليتيكـــي، نعـــم، بمعـــنى تحويلـــها إلى رهان بالنسبة للعالم الحديث .وهكـــذا يحفـــظ الجـــبرتي بشـــكل واضح تاريخ ٢ ديســـمبر ١٨٠٥، معركـــة الأبـــاطرة الثلاثـــة: لقد أدرك المصريون على الفـــور أن مصـــيرهم قـــد تقـــرر في أوسترليتز، أي في الخارج .ويـــأخذ المصريـــون هـــذا الواقـــع في حسابهم في مجريات حياتهم اليومية. وفيما عـــدا ذلـــك، فـــإن الانفتاح على العلم قد قام به فيما بعـــد محمـــد علـــي الـــذي ينشئ بشكل بالغ الذكـــاء أســـطورة الحملـــة لكـــي يرضـــي الغرب.
- أوضحت في مكان آخر كيف رد المصريون حجـــة الدعايـــة...
- نعم، في كتاب **المملكـــة المســـتحيلة**، أوضحـــت كيـــف أن المصريين قد تمكنوا من رد حجة الدعاية وأثـــروا علـــى الـــرأي العام الغربي: فبقدر ما يتأثر المرء بالآخر، لابد له مـــن أن يؤثـــر على الآخر، باستخدام لغته هو. وقد أدرك عبـــد النـــاصر ذلـــك

بشكل رائع في كتابه **فلسفة الثورة**: فبهذا الشكل يحدث نقل الايديولوجيات. إن مصطلحي "الأمة" (القومية) و"التمدن" كانا جزءً من المعجم السياسي للغرب في القرن التاسع عشر، وقد استخدمتهما مصر لحسابها: إنها تصبح أمة (قومية) تخوض تجربة "تمدن". وهكذا نرى الشكل الذي يجرى الانتقال به من خطاب الحملة إلى خطاب محمد علي.

وقد أوضحت في مكان آخر كيف يجرى الانتقال هذا الشكل من الخطاب بوصفه ذريعة إلى الخطاب بوصفه متناً.

- لماذا العنوان الفرعي :**بونابرت والإسلام؟**
- إن فكرة بونابرت عن الإسلام هي فكرة ثوري ورومانسي.

وهو يرى أن الإسلام يتميز بطابع ثوري .وغايته هي في البداية احتواء هذا العنف عندما يقف ضده، ثم، فيما بعد، استخدامه لحسابه، بتزعم هذه الطاقة الثورية. فالإسلام عنده هو معادل الثورة الفرنسية .وفي **مذكرات سانت هيلانة**، يتحدث عن محمد مستخدماً مصطلحات الثورة الفرنسية في تحليل دوره التاريخي، الأمر الذي يفسر الخطاب الذي يستخدمه مع المصريين وإحالاته.

المحتويات

للمترجم

تأليف:

- **تروبادور الصمت**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤.
- **مرايا الانتلجنسيا**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٥.
- **مبدأ الأمل**، دار حور، القاهرة، ١٩٩٦.

ترجمة:

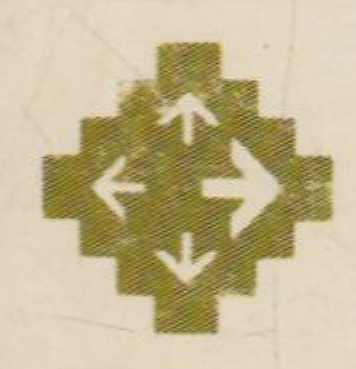
- ز. ا. ليفين: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر**، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨.
ط٢ تحت عنوان: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر والشام**، شرقيات، القاهرة، ١٩٩٧.
- ز. ا. ليفين: **التنوير والقومية. تطور الفكر الاجتماعي العربي الحديث**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧.
- جورج حنين: **لا مبررات الوجود**، أصوات، القاهرة، ١٩٨٧ (بالاشتراك مع أنور كامل).
- تيموثي ميتشل: **استعمار مصر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حسان)
- ك. ب. كافافي: **قصائد**، دار إلياس، القاهرة، ١٩٩١.
- تيموثي ميتشل: **مصر في الخطاب الأميريكي**، مؤسسة عيبال، نيقوسيا، ١٩٩١.
- تزفيتان تودوروف: **فتح أمريكا، مسألة الآخر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٢.
- روبير مانتران (اشراف): **تاريخ الدولة العثمانية**، جزءان، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣.
- فيليب فارج ويوسف كرباج: **المسيحيون واليهود في التاريخ**

الإسلامي العربي والتركي، سينا للنشــر، القــاهرة، ١٩٩٤.
- ادواردو جاليــانو: **الشــرايين المفتوحــة لأمريكـــا اللاتينيــــة — تـــاريخ مضـــاد**، دار النيــل، الإســكندرية، ١٩٩٤ (بالاشــتراك مـــع أحمد حســان).
- توماش ماستناك: **الإســـلام وخلــق الهويــة الأوروبيــة**، دار النيــل، الإســكندرية، ١٩٩٥.
- هنري لورنس وآخرون: **الحملـــة الفرنســية في مصــر — بونــابرت والإسلام**، سينا للنشر، القاهـــرة، ١٩٩٥.
- توماس ماستناك: **أوروبا وتدمير الآخر — الهنـــود الحمــر والأتــراك والبوسنويون**، دار مصر العربيــة، القــاهرة، ١٩٩٥.
- جورج حنين: **أعمال مختارة**، منشــورات الجمــل، كولونيــا، ١٩٩٦. ط٢ (موسعة) تحت عنوان: منظورات، الهيئــة العامــة لقصــور الثقافــة، القــاهرة، ١٩٩٨.
- تيموثي ميتشل: **الديموقراطية والدولــة في العــالم العــربي**، دار مصــر العربية، القــاهرة، ١٩٩٦.
- زكــاري لوكمــان: **خطــاب الأفنديــة الاجتمـــــاعي، ١٨٩٩-١٩١٤**، دار مصر العربية، القــــاهرة، ١٩٩٧.
- جان - كلود جارسان: **ازدهار وانهيــار حــاضرة مصريــة: قــوص**، سينا للنشر، القــاهرة، ١٩٩٧.
- هنري لورنس: **المملكة المستحيلة — فرنسا وتكويـــن العــالم العــربي الحديث**، سينا للنشر، القــاهرة، ١٩٩٧.
- هنري لورنس: **بونابرت والإســلام. بونــابرت والدولــة اليهوديــة**، دار مصر العربية، القــاهرة، ١٩٩٨.
- جويس منصور: **اِفْتَحْ أبواب الليــل**. منشــورات الجمــل، كولونيــا، ١٩٩٨.
- عبد الله الشيخ موســـى: **الكــاتب والســلطة**، دار مصــر العربيــة،

القــاهرة، ١٩٩٩.
- فرنان برودل: **هوية فرنسا**، المجلد الأول: **المكـــان والتـــاريخ**، المجلـــس الأعلى للثقافة، القـــاهرة، ١٩٩٩.
- فرنان برودل: **هوية فرنسا**، المجلد الثاني: **النـــاس والأشـــياء**، المجلـــس الأعلى للثقافة، القاهرة، (تحت الطبـــع).
- صفاء فتحي: **إرهاب**، المجلس الأعلى للثقافـــة، القـــاهرة، ١٩٩٩.
- هنري لورنس: **الأصول الفكرية للحملـــة الفرنســـية علـــى مصـــر، الاستشراق المتأســـلم في فرنســـا (١٦٩٨-١٧٩٨)**، دار شـــرقيات، القـــاهرة، ١٩٩٩.
- برنار نويل: **لسان أنا**، دار شـــرقيات، القـــاهرة، ١٩٩٩.

بمناسبة عيد الأول من فانديمير، أمر بونابرت بأن يتم في أحد ميادين القاهرة نصب مسلة شاهقة الارتفاع، ليس من الجرانيت بل من سماك مغطى بكتان عليه رسوم، مثلما جرت العادة على ذلك في أيامنا. وبعد الاحتفال بالعيد، أحدث الجنود فتحة في القاعدة ودخلوا إليها. وقد وجدوا المكان مناسبا للسهر مع القحبات المصريات، وسرعان ما أصبح مرتعا للرذيلة والفجور. وفي النهاية، اختفى غطاء هذا النصب تماما. وهذا الأثر الذي كان في البداية جد رائع ويناطح السماء، وقد كف عن أن يكون غير وكر شائن ومثير للسخرية، إنما يشتهي ويتحسس سقوطه الوشيك. فإما أن أكون مخطئا بشكل فادح، أو أن قصة هذا الأثر، الذي أعلن نبأ تشييده لأوروبا بالطبل وبالزمر، سوف تكون قصة بونابرت نفسه".

كليبر، يوميات



دار شرقيات للنشر والتوزيع